الموسوعة الصغيرة

١٧٦

كانت

"ملامح عن حياته واعماله الفكرية"

تأليف

د. عماد عبد السلام رؤوف

الموسوعة الصغيرة

تصدرها

دائرة الشؤون الثقافية والنشر

بغداد / الجمهورية العراقية

رئيس التحرير
موسى كريدي

سكرتير التحرير
ماجد أسد



١٩٨٦

الموسوعة الصغيرة
(١٧٦)

كـــانت
١٧٢٤ ـ ١٨٠٤
مـلامح
من حياته واعماله الفكرية

« شيئان يملآني عجبا ، السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي والقانون الخلقي في نفسي »

عمانوئيل كانت
في كتابه : نقد العقل العلمي

سيرته الشخصية

ولد عمانوئيل كانت في ٢٢ نيسان سنة ١٧٢٤م بمدينة كونكسبرك Konigsberg الواقعة على الحدود الشمالية الشرقية لالمانيا ، من أبوين فقيرين : اذ كان ابوه سراجا بسيطا ، بينما كانت امه من اسرة متواضعة ، وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان اباه كان ينحدر من اسرة اسكتلندية هاجرت الى بروسيا قبل مولد عمانوئيل بقرن واحد تقريبا ، وهذا في رأيهم هو السبب في الميل الشديد الذي اظهره كانت منذ البداية نحو فلاسفة الانكليز[1] .

---

١ ـ د. زكريا ابراهيم : « كانت » او الفلسفة النقدية (القاهرة دون تاريخ) ص٣٤ .

عاش كانت في اسرة بسيطة شريفة ، لم ينعم فيها برغد العيش ورفاهيته ، ولكنه لم يذق يوما طعم الجوع والحرمان ، ولم ينشأ حاقدا ناقما على ابناء الطبقة البرجوازية . بل نشأ على تقديس العمل وتقديس الفضائل التي ينجح بفضلها العمل ، من شرف وصدق وامانة واخلاص[٢] .

واشتهر عن عمانوئيل انه كان يحب امه حبا جما، وليس ادل على ذلك من قوله الى تلميذه، وصديقه ياخمان الذي كان مديرا لمعهد التربية في كونكسبرك : « انا لا أنسى ماحييت ، انها غرست اولى بذور الخير في نفسي» والحق انه لم يتعلم في اسرته المتواضعة العاملة اصول الاخلاق والدين وحسب ، بل تفتحت عيناه فيها على حب الطبيعة والمعرفة ، اذ كثيرا ما كانت امه (واسمها آنا رجينا روتر) تصحبه في نزهة حول المدينة وتلفت

---

٢ ــ كانت : مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة (ترجمة د. نازلي اسماعيل) (القاهرة ١٩٦٨) ص٨ (المقدمة)
The Encyclopedia Britannica Vol 13. p265

نظره الى جمال الطبيعة ونظامهـا في السماء والارض، كما كانت تحاول ان تفسر له ظواهرها بقدر ما اوتيت من العلم والمعرفة[٣] •

لقد حرصت والدة كانت على تزويد ابنها بالثقافة الدينية ، إذ كانت هي على مذهب التقوى الذي شـاع يومذاك في اجزاء من المانيا ، فالحقته وهو في الثامنة من عمره بالمدرسة الاولية التابعة لمستشفى القديس جورج عام ١٧٣٠م ، حيث تتلمذ على يد مدرسهـا الوحيـد وصديق الاسرة في الوقت نفسه« شولتز » **Schultz** ثم انتقل بعد ذلك في صيف عام ١٧٣٢م الى كلية الملـك فردريك ، فأتقن فيها الاداب اللاتينية وثقافتها ، ووجد فيها مايرضي ميوله في دراسة القدماء والتعرف علـى علومهم وفنونهم • ولكنه لم يجد في نظم هذه المدرسة ما يرضي ذهنيته المتفتحة ، وعقليته الحرة ، بل انه رأى فيها صورة متزمتة للحياة الدينية ، فكان اليوم المدرسي

---

٣ ـ المرجع السابق ص٩

يبدأ ويختم بصلاة كنسية طويلة ، اضافة الى صلوات قصيرة بين الدروس ، فضلا عن ساعتين للعبادة اسبوعيا . ولقد وجد كانت في هذه المراسيم الكثير مما يدعو الى كراهية الدين والنفور منه ، ولم يجد فيها ما يدفع الى الاقبال عليه والتمسك به[٤] .

ولم يلبث كانت ان التحق بكلية الفلسفة التابعة لجامعة كونكسبرك ، حيث تتلمذ على يد كنوتسن Knutzen ، احد اتباع وولف Wolff الفيلسوف الالماني الشهير ، فأستطاع ان يلم بمذهب ليبنتز ، واظهر في تلك الفترة براعة خاصة في الدراسة اللاتينية، مكنته فيما بعد من التعبير الدقيق عن مختلف الاراء والافكار المعقدة التي جاءت نتيجة لعملية هضم العديد من النظريات ، العلمية منها او اللاهوتية و الميتافيزيقية (ماوراء الطبيعة) .

والظاهر ان كانت ترك الجامعة سنة ١٧٤٧م لاضطراره الى كسب العيش بعد وفاة والده في نفس

---

٤ ـ كانت : مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ص٩ (المقدمة)

السنة ، فعمل مدرسا ومربيا خاصا لابناء بعض الاسر النبيلة التي كانت تعيش في شرق بروسيا . وفي سنة ١٧٥٤ عاد الى وطنه كونكسبرك حيث تمكن ان يقدم الى الجامعة رسالته اللاتينية للحصول على درجة « الدكتوراه » وكان موضوعها « في النار » ، وهي في فلسفة الطبيعة ، ولم يعرف عن كانت قبل هذا العمل، عمل فلسفي آخر سوى بحث صغير تحت عنوان « اراء حول التقدير الصحيح للقوى الحية »[٥] . وهو بحث يظهر فيه تأثره بنظرية نيوتن في الجاذبية[٦] .

عين كانت مدرسا للرياضيات ، وللطبيعة ، وللفلسفة في خريف عام ١٧٥٥م ، وشعل وظيفة محاضر خارجي بالجامعة ، واستطاع بفضل المامه ، وتدريسه ، لمادة الجغرافية الطبيعية ان ينشر بحثا هاما في نفس السنة عنوانه « تاريخ الطبيعة العام ونظرية السماء :

---

٥ ـ The Encyclopedia Britannica Vol 13. p265

٦ ـ كانت او الفلسفة النقدية ص٣٥ .

دراسة للنظام والاصل الميكانيكي للكون ، وفقا لمبادىء نيوتن »[٧] •

كان كانت حتى هذه المرحلة مهتما بالمسائل العلمية ، ولم يكن قد كون بعد اسس فلسفته النقدية المشهورة ، اذ كان في آرائه متأثرا بنزعة وولف العقلية، وفي سنة ١٧٦٦م تهيأ لدراسة علم المعادن عن طريق تعيينه امينا للمكتبة الملكية ، ثم ما لبث ان عرضت عليه جامعة ارلنكن Erlagen وظيفة استاذ الفلسفة النظرية ثم إن جامعة يينا Iena عرضت عليه نفس الامر ، الا ان جواب كانت كان الرفض ! • وذاعت شهرة كانت في ارجاء المانيا كلها ، واصبح معقد امل بعض رجال الدولة الذين كانوا يرومون اصلاح سياسة التعليم في البلاد • ولما حاول

---

٧ ـ ديوارنت : قصة الفلسفة من سقراط الى جون ديوي ص٦ ٤٤ ، (ترجمة فتح‌الله محمد بيروت ١٩٧٢) وكانت او الفلسفة النقدية ص٣٨ و The Encyclopedia Britannaica Vol 13. p266

وزير التعليم كارل زدليتز K.Zedlitz ان يقنع كانت بتوليه مهمة هـذا الاصلاح ، وذلك عـن طريق تدريسه في جامعة هالة ، اعتذر الاخـير وآثر البقاء في مدينتـه[٨] .

وفي سنة ١٧٧٠ وافق الملك فردريك الثاني علـى تعيينه استاذا للمنطق والميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) في جامعة كونكسبرك ، فبدأت بذلك اهم مرحلة من مراحل تطوره الفكري ، اذ تحرر كانت من تأثير وولف العقلي، كما استطاع الموازنة بينه وبين نزعة هيوم الارتيابيـة، وخرج اخيرا بفلسفة عميقـة جديدة اطلق عليها اسـم « الفلسفة النقدية » .

ويمكن القول ان تباشير هـذه الفلسفة بدأت في الظهور منذ ان نشر كانت رسالته اللاتينية التقليدية التي تقدم بها الى الجامعة سنة ١٧٧٠م لشغل منصب استاذ المنطق وما وراء الطبيعة ، وعنوانها « صـور ومبادىء

---

٨ ـ كانت : مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ص١٢

!العالم المحسوس والعالم المعقول » فآراؤها تشبه من حيث الاساس افكار كتابه العظيم «نقد العقل المجرد»[٩] الذي نشره بعد ١١ عاما ، على ان المدة التي انحصرت بين تاريخي تأليف الكتابين لم تكن الا فترة تأمل ودراسة عميقتين ، لم ينشر كانت خلالها الا مقالين صغيرين ، احدهما عن « الفوارق بين السلالات » والاخر « حول معهد دوسو الخيري »[١٠] .

امتاز كانت بوضوح محاضراته في الميتافيزيقا ، وخصب آرائه عنها ، فكان يبدأ محاضراته فيها اولا بتعريف التصورات الميتافيزيقية ثم يتناول الموضوع بصورة منهجية دقيقة ، اما محاضراته في اللاهوت ، فقد كانت تهدف الى انارة العقول في المسائل الدينية ، واثارة الشعور الخلقي الباطن فيها دون اضفاء اية اهمية

---

٩ ـ ديوارنت : قصة الفلسفة ص٤٤٤ وكانت : مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ص١٣ .

١٠ـ في آخر كتاب د. زكريا ابراهيم : كانت او الفلسفة النقدية ثبت في جميع آثار كانت .

خاصة للطقوس التقليدية ، الا ان محاضراته اللاهوتية لم تلق من الاهتمام ما لاقته محاضراته الميتافيزيقية حتى انه فكر احيانا بالامتناع عن القائها ٠

ولقد عاش كانت ناذرا نفسه للتنقيب عن الحقيقة، لكنه لم يكن ، مع ذلك ، منعزلا عن الناس والمجتمع ، حقيقة انه لم يتزوج ، انما كان يجب ان يعيش بين الناس ، وان يتردد عليه اصدقاؤه وان يتردد هو عليهم ٠

اما ما قيل عن كونه جافيا لاخيه حيث لم يكن يراسله ، فمبالغ فيه ، لانشغال كانت التام ببحوثه ليس الا ، ولانه ما ان توفي هذا الاخ حتى قام بكل ما تتطلبه الاخوة من مساعدة ، اضافة الى انه كان ينفق على اخته ماري الزا بعد وفاة زوجها ، ثم على اولادها بعد وفاتها هي ، وكان هذا فعله مع سائر اقاربه[١١] ٠

وفي عام ١٨٠٣م اصدر كانت آخر كتاب له وهو « في التربية » ، وكان حينذاك في التاسعة والسبعين

١١ـ كانت : مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ص١٥ ٠

من عمره ، وكانت حالته العقلية والصحيـــة في تدهور مستمر ، اذ فقد بصره تماما ، وكاد ان يفقــد ذاكرته، حتى توفى وهو في الثمانين من عمـــره ، وذلك في ١٢ شباط عام ١٨٠٤م وكانت آخر كلمة تفوه بها : « هــذا حســن » .

وقد اعتبرت وفاته حدادا شعبيا ، فدفــن تحت الاعمدة الخارجية لكاتدرائية كونكسبرك ونقشت على شاهد قبره عبارة وردت في كتابه « نقد العقل العلمي » وهي « شيئان يملآني عجبا ، السماء المرصعة بالنجــوم فوق رأسي ، والقانون الخلقي في نفسي » .

آراؤه في ما وراء الطبيعة « الميتافيزياء »

كان اهتمام كانت بالميتافيزيقا اهتماما عجيبا من اكثر من ناحية ، لانه حاول جاهدا ان يقيمها على اساس منطقي علمي مقنع ، بالرغم من ايمانه بأن مجرد كونها « وراء الطبيعة » يعني استحالة اخضاعها للمقاييس الطبيعية المألوفة في سائر العلوم « الفيزياء والرياضة » وهذا بالذات ما دعا البعض الى القول بأن كانت نفسه لم يكن كانتيا(*) اي ان فلسفته تقود الى ما رفض هو الاعتراف به مسبقا .

اراد كانت من وراء كتبه في هذا الضرب من الفلسفة ، وعلى رأسها « نقد العقل المجرد » اقامة

---

* كانت او الفلسفة النقدية ص٢٣٠ – ٢٣١ والموسوعة الفلسفية المختصرة ص٤٤٦ فما بعد .

الفلسفة الميتافيزيقية على اسس علميةمقبولة ، ولهـذا فأنه اراد ان يمهد السبيل الى ميتافيزيقا تقوم في المستقبل خالية من اوزار الماضـي واخطائه . انه لم يرد بكتابه « نقد العقل المجرد » ان يقدم تفكيراً ميتافيزيقيا ايجابيا ، بل انه اراد ان يتخذ منه اداة تعينـه علـى كشف الطريق السوي للبحث الميتافيزي المنتج ، لذلك فقد نشر آراءه هذه في عدد من الرسائل والمقالات والكتب ، منهـا « حول فشل كل محاولة فلسفية في مضمار الربوبية » (سنة ١٧٩١) و « مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن ان تصير علما (سنة ١٧٨٣) و « احلام راء مفسرة على ضوء احلام الميتافيزيقا » (سنة ١٧٦٦) و « محاولة من اجل ادخال مفهوم الكميـات (او المقاديـر) السالبـة في الفلسفة » (سنة ١٧٦٤) .

بدأ كانت عمله هذا ، بوعد قطعه على نفسه ، وهو ان يترك الموضوعات الميتافيزيقية (وهي عنده اللـه ، والحرية ، والخلود) جانبا ، حتى يفرغ من تحليله لبناء العلم الرياضي وبناء العلم الطبيعي ، ليعود بعدئذ الـى

البحث الميتافيزيقي فيقيمه على نفس الاسس التي رآها في ذينك العلمين . لكنه فرغ من نقده للرياضة وعلم الطبيعة ، ثم لم يتم ما كان قد وعد به من تشييد بناء الميتافيزيقا على غرارهما ، منتهيا الى انه وجد النقد هو بذاته الميتافيزيقا التي ارادها ، وبعبارة اخرى فأنه انتهى الى ان تحليل القضايا العلمية في الرياضة والطبيعة هو كل ما يرجوه الفيلسوف لنفسه ، ولاشيء غير ذلك ، فأن كان للميتافيزيقا معنى ، فهو تحليل القضايا العلمية[١] .

حاول كانت دائما الاجابة على السؤال التالي « كيف تكون الميتافيزيقا ممكنة بوصفها علما » ؟ وكان جوابه في فصل عقده بهذا الاسم من كتابه المهم « مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن ان تصير علما »[٢] يتلخص بأن الميتافيزيقا « كأستعداد طبيعي للعقل تكون

---

١ ـ كانت : نقد العقل المجرد ص٣٥ ود. زكي نجيب محمود : خرافة الميتافيزيقا ص٤٨ .

٢ ـ هو اهم فصول الكتاب ، حتى اعتبره كانت « حلا للمسألة العامة في المقدمة » .

واقعية »[٣] ، ويعني بهذا انها ممكنة اذا اريد بها تحليل القضايا العلمية تحليلا ينتهي الى تحديد ابعادها ، وابراز الفروض التي تستند اليها تلك القضايا «اما بالنظر اليها في ذاتها فقط فانها تكون جدلية ومموهة » وهكذا جعل كانت الميتافيزيقا مستحيلة على العقل التأملي النظري ، اذا اريد بها البحث فيما فوق التجربة البشرية، وكلما زاد المرء اقترابا من آراء كانت ادرك انه ينتهي تدريجيا الى اعتبار الميتافيزيقا مجرد تحليل للقضايا العلمية ، اي انه يمنحها معنى سلبياً ، مجرداً إياها من فعاليتها الايجابية السابقة ، منكرا بأن البحث فيها بذاتها يمكن ان يؤدي الى جديد ذي بال . نعم انه اعتبر الحديث في الموضوعات الميتافيزيقية الثلاثة ، وهي الله والحرية والخلود امرا ممكنا ، لكن «امكانه» لا يمكن الا عن طريق الضرورة الخلقية ، ذلك لان العقل النظري لايمكنه

---

٣ ــ كانت ، عمانوئيل : مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ص٢٠٩ (من الترجمة العربية) .

مجاوزة حدوده بغير ان « يطـوح بنفسـه في الظلام والمتناقضات »[٤] .

ولكي يثبت كانت عجز هذا العقل التأملي النظري عن البحث الميتافيزيقي ، حاول ان ينقذ هـذا العقـل نفسه ، وان ينقد ما يختزنه من معرفة ، وهكذا اظهـر كانت للوجود فلسفته النقدية المشهورة . وحين يتحدث كانت عن النقد فأنه لايعني به ــ بطبيعة الحال ــ نقـد الكتب والمذاهب ، بل نقد ملكة العقل بصفة عامـة . خصوصا فيما يتعلق بتلك المعارف التي يحاول الوصول اليها دون الاستعانة بالتجربة ، ومن هنا فأن الموضوع الرئيس الذي يدور حوله النقد الكانتـي ، انما هـو الفصل في مشكلة امكان قيام الميتافيزيقا ، او استحالـة قيامها بصفة تامة ، مع الاهتمام بتحديد اصـل هـذا العلم ، ومداه ، وحدوده على اسس عقلانية واضحة .

---

٤ ــ كانت : نقـد العقل المجرد ص٣٧ ترجمة احمـد الشيباني ، بيروت .

ولاشك في ان السبب الذي حدا بكانت الى هذه العناية بالمشكلة الميتافيزيقية هو ما لاحظه في عصره من قيام الكثيرين من الفلاسفة ، الانطولوجيين ، والغائيين والدغماتيين ، وغيرهم ، من اقامة القواعد الميتافيزيقية على مبادىء تأملية محضة غير قابلة للنقد الحق ، كما كان الفلاسفة العقليون التوكيديون يستخدمون المنهج الاستنباطي لاقامة علم الوجود من حيث وجود ، وكأن في وسع العقل ان ينتقل بسهولة من « الممكن » الى « الموجود » او من « فكرة الله » الى « تقرير وجود الله » كما فعل فولف مثلا[٥] .

---

٥ ــ كانت او الفلسفة النقدية ص١٤ ونقد العقل المجرد، الصفحات ٣٤ ــ ٤٤

آراؤه في الدين

في الواقع ، يصعب فصل آراء كانت في الطبيعة، وما وراء الطبيعة ، والاخلاق ، عن آرائه في الدين ، واللاهوت ، وذلك لعمق فلسفته ، وتوغلها في البحث عن جواهر الاشياء الحقيقية ، دون كبير التفات الى مظاهرها الخارجية ، التي قد تبدو على شكل سياسة ، او دين ، او اخلاق .. الخ .

نعم ، لايمكن انكار ما دعا اليه كانت من التقليل من شأن رجال الدين ، وعدم اهتمامه الواضح بأداء فروض العبادة والتردد الى الكنائس ، فتلك امور شهد بها اصدقاؤه جميعا[1] ، ولكن كانت ــ بالرغم من ذلك ــ يسعى الى اقامة دين الهي حقيقي ، لايستند الى

---

١ ــ كانت او الفلسفة النقدية ص٢٤١ .

افكار رجال الدين التقليدية ، ولا الى التواريخ الكنسية المعهودة وانما يعتمد على النوازع الخلقية السامية الكامنة في اعماق الانسان ، والتي ترفعه ان التزمها الى مصاف الملائكة .

حاول كانت اول الامر ، جاهدا ، اقامة اسس منطقية معقولة تثبت وجود الله بصورة لاتقبل الشك ، ولما شاهد بعينه ان الاسس التي كان سابقوه من الفلاسفة الميتافيزيقيين تتهاوى عند نقده لها ، صمم على ترك المجال الميتافيزيقي المحض الذي هو بطبيعته خارج نطاق العقل البشري ، وحاول اقامته على قوانين عقلية حقيقية مستمدة من الاخلاق .

وكان اول بحث ظهر لكانت في هذا الموضوع ، رسالة مهمة اصدرها سنة ١٧٦٣م بعنوان الدعامة الوحيدة الممكنة للبرهنة على وجود الله » حاول فيها ان يهدم بعض المعتقدات التي كان فولف قد اقامها في ميدان اللاهوت الغائي او الطبيعي(٢) ، فكانت هذه

---

٢ ــ كانت : نقد العقل المجرد ص٢٠

الرسالة بمثابة اعلان لتخلص كانت الفكري بفلسفة فولف (وهي المرحلة الاولى من تطوره الروحي) وبدأ يتجه اتجاها ارتيابيا متأثرا بدافيد هيوم ، الفيلسوف الانكليزي الشهير .

وقد طور كانت آراءه هذه وبلورها في فصول خاصة عقدها في كتابه العظيم « نقد العقل المجرد » (الصادر سنة ١٧٨١) حيث اكد على استحالة البرهان الانطولوجي (الميتافيزيقي المحض) على وجود الله معتبرا ان فكرة وجود الله هي كمال لا يمكن بلوغه ، وانها « فكرة محضة لم تبرهن الواقعة القائلة بأن العقل يتطلبها بتاتا على حقيقتها الواقعة الموضوعية »[٣] كما انه رفض في الفصول التالية جميع البراهين التي كان الفلاسفة قد تواضعوا عليها ، كالبراهين التأملية[٤] ، والغائية[٥] ، والاستشرافية[٦] ولذلك فقد انتهى كانت

---

٣ ـ كانت : نقد العقل المجرد ص٦٥٢
٤ ـ المرجع السابق ص٦٤٤ ـ ٦٥١
٥ ـ المرجع السابق ٦٨٠ ـ ٦٩٠
٦ ـ المرجع السابق ص٦٧٤ ـ ٦٧٩

الـى ان « الكائن الاسمى يبقـى ، لاريب ، بالنسبـة للاستعمـال التأملي المحض للعقل ، مثالا اعلـى فقط ، ولكنه مثال اعلى بدون عيب » ، ويبقى معنى عاما ينجز ويتوج كامل المعرفة البشرية . ورغم انه لاتمكن البرهنة على حقيقته الواقعية الموضوعية ، فأنه لايمكن رفضه بهذه الطريقة[7] .

وفي سنة ١٧٩٣م اصدر كانت كتابه الخطير الذي اسماه « الدين ضمن حدود العقل المجرد » فكان بحق « اجرأ كتاب وضعه واشد جميع مؤلفاته جسارة »[8] فقد نقد فيـه عقليـة رجال الدين صراحـة ، ورأى في طقوسهم المعقدة ، وبعض تصرفاتهـم ما لايتفـق مـع القوانين الخلقية ، وبين ان ارتكاز الدين يجب ان يكون على « العقل العملـي للحس الاخلاقـي » لاستحالـة ارتكازه على منطق العقل النظري (الميتافيزيقي المحض)، فأذا ما اشتكى المرء من ذلك الجهل النظري الذي شاءت

---

٧ ـ المرجع السابق ص٧٠١

٨ ـ ديوارنت ، ويل قصة الفلسفة ص٤٧٦

الحكمة الالهية ان تتركنا فيه ، كان رد كانت على ذلك ان الله قد شاء ان يدع لنا مهمة التعرف على حقيقة وجوده وحقيقة خلودنا ، بفعل الارادة الاخلاقية التي تنزع نحو السعادة . ولو كانت لدينا معرفة يقينية بالله وبالخلود ، لكانت هذه المعرفة نفسها قوة جبرية هائلة تضغط على إرادتنا ، فهو بذلك منحنا من الارادة ما تستطيع معه ان تتوصل الى الايمان »[٩] .

وهكذا مزج كانت بين مبادئه الثلاثة ، الخلود ، والحرية ، والله على النحو التالي :

١) ان الانسان لايستطيع ان يؤدي واجبه الا اذا كان حرا .

٢) ان الانسان لايستطيع ان يحقق القداسة الا اذا كان خالدا .

٣) ان الانسان لايستطيع ان يرقى الى مستوى الخير الاعظم ، الا اذا كان الله موجودا .

---

٩ ـ كانت او الفلسفة النقدية ص٢٣٦

ان هذه الافتراضات ليست نظرية ، بل هي عملية ضرورية ، في عرف الفلسفة الكانتيــة[١٠] • والواقع ان كانت لم يقف عند هذا الحد في بنائه الجديد للديانة ، بل صرح برأيه في ان الدين ليس عقيدة نظرية ، بل هو فعل خلقي باطني ، او عبادة روحية خالصة ، ومن هنا فأننـا نراه يضع الشعور الاخلاقي في منزلة ارفع مــن العقائد والطقوس الشكلية او العبادات الخارجية • وهو يقول في هذا بصريح العبارة « ان كل ما قد يتوهم الانســان انه يستطيع عن طريقه ان يكسب رضاء الله ـ فيما عدا اتخاذ مسلك اخلاقي طيب في حياته ، انما هــو محض هذيان ديني ، او هــو مجرد عبادة زائفة لله » • لقــد انتقد كانت اصحاب الديانات في اخذهم للكتب الدينية بحذافيرهــا ، واهتمامهــم الخاص بضـروب العبــادة الخارجية ، ودراسة احداث الدين التاريخية ، في حين ان المهم في رايه هو فهم الروح الباطنية للدين وتفسير الكتب الدينية تفسيرا رمزيا ، وتجريد الدين من الاعتبــارات

١٠ـ المرجع السابق

الخارجية والتاريخية ، وهذا هو معنى قوله : « انه لا ينبغي البحث عن الدين خارجا عنا ، بل في داخلنا »[11] .

لهذا فقد حاول كانت تفسير الاحداث الدينية التاريخية على نحو رمزي جديد ،فنراه يفسر الخطيئة الاصلية (او سقطه آدم) على انها تعبير عن التعارض الاصلي القائم بين الارادة والحساسية ، او بين مملكة الحرية ومملكة الطبيعة ، ونراه يفسر فكرة « المسيح » او « ابن الله » على انها مجرد تعبير عن المثل الاخلاقي الباطن فينا .. الخ ، وحين يتحدث كانت عن الكنيسة اللامرئية فأنه يعني بها تلك « الجمهورية الاخلاقية » او ذلك « المجتمع المثالي » الذي يكون قانون الواجب منه بمثابة الدستور ، ويكون الله نفسه هو المشرع الحقيقي . ويؤكد كانت انه لن يكون ثمة موضع لرموز تاريخية تفرق الناس شيعا واحزابا في مثل هذا المجتمع المثالي الذي يقوم على ثبات القانون الاخلاقي ، وما

١١ــ المرجع السابق ص٣٣٩

دام الرئيس الوحيد الذي يخضع له افراد هذا المجتمع انما هو ذلك الاب اللامرئي الذي يدينون له بالطاعة بأعتباره المثل الاعلى للاخلاق ، فأن الايمان العقلي سيكون حتما هو الرابطة الوحيدة التي توحد شملهم •
وكانت هنا ينعى على المسيحيين نسيانهم للرسالة التي جاء المسيح من اجلها ، وهي تحقيق ملكوت السموات على الارض « فها اننا نرى ملكوت الكاهن قد اقيم بيننا بدلا من ملكوت الله »[١٢] زد على ذلك ان « المذهب » و« الطقس » قد حلا محل الحياة الصالحة، وبدلا من ان يكون الناس مرتبطين برباط الدين ، نراهم اليوم منقسمين الى الف ملة ونحلة • ولم يصدق كانت بالمعجزات معتبرا اياها غير قادرة على البرهنة على الدين، وذلك لانه ليس بمقدورنا ان نعتمد على الشهادة التي تدعمها ، كما ان الصلاة ـ في رأيه ـ غير مجدية اذا كانت تستهدف ايقاف العمل بالقوانين الطبيعية • واخيرا يبلغ الدين ما يشبه الانحراف عندما تصبح الكنيسة اداة

١٢ـ كانت او الفلسفة النقدية ص٢٤٠

في يد حكومة رجعية ، وعندما يصبح رجالها ادوات للظلمة اللاهوتية والطغيان السياسي[١٣] .

وفي الواقع انه على الرغم من وفاة فردريك الكبير سنة ١٧٨٦م ومجيء فردريك غليوم الثاني للحكم ، الذي كان اكثر تعصبا ، وعلى الرغم من قوة آراء كانت وجرأتها ، فأن احدا لم يتعرض له بأي اذى او ازعاج ، وذلك لانه كان طاعنا في السن من ناحية ولانه ، كما قال احد المستشارين الملكيين : حفنة من الناس هم الذين يقرأون كتبه ، ولايفهمونه . ولكن ما ان الف كانت كتابه الديني المذكور الذي اسماه « الدين في حدود العقل المجرد » حتى وجدت فيه السلطات آنذاك ما لايمكن السكوت عنه ، فمنعت نشره ، الا ان كانت قام بخطوة جريئة لم تكن لتتلاءم مع سنه ، فقد ارسل كتابه الى « يينا » (الخارجية عن سلطة بروسيا) حيث نشر هناك ، فما كان من الملك البروسي الا ان يرسل اليه امرا

---

١٣ ـ ديورانت : قصة الفلسفة ص٤٧٧

وزاريا ، يطلب فيه « تقديم الحساب فورا » والوعـد بعدم « صدور أي اساءة كهذه » مع تهديـد ضمنـي لشخصه ، ورغم ان كانت اقر مبدئيا في العمل الحر ، الا انه وعد بالمحافظة على الصمت طيلة عهد الملك المذكور، وفعلا توقف عن اصدار الاجزاء التاليـة مـن كتابـه ذاك (*) .

---

* ديورانت : قصة الفلسفة ص٤٧٩

آراؤه في الاخلاق

انكر كانت ربط الاخلاق بنتائج الافعال ، مـــن لذات والم ومنافع ومضار ، وجعل قيمة الافعال قائمـة في باطنها وليس في الغايات التي تقوم خارجها ، ومن اجل هذا كان مذهبه نظرية في الواجب لا في الخير ، الــذي يصيب صاحبه او غيره من الناس •

وهكذا يتوصل كانت الى الخيرية صغـة الارادة الباطنية وحدها فلا شيء غير الارادة يمكن ان يكــون خيرا بالذات ، والارادة الخيرة لاتحركهـا رغبات ، او غايات ، ولا عواطف ، ولا شهوات ، لان الافعال التــي تصدر عن هذه البواعث تكون قيمتها مشروطة مرهونة بتحقيق هذه الغايات ، واشباع تلك الميول ، واذا اختفت هذه الميول انعدمت قيمة الافعال • ومن ثم اراد كانت

ان يحرر السلوك الاخلاقي من قيود هذه الميول والاهواء حتى تكون قيمته باطنية مطلقة ، وبهذا تستبعد اللذة والمنفعة والسعادة غاية قصوى لافعال الانسان الارادية ، فالباعث على فعل الواجب لايقوم قط في الرغبة في تحقيق غاية ، ان الباعث يقوم في الارادة نفسها، ويجب ان يكون « صوريا » بحتا ، اي مجرد قانون صوري لايستفتي الواقع ولا يستمد من التجربة ، ومن ثم كان عاما مطلقا ، ويتيسر للانسان ان يجعل قاعدة تصرفه قانونا في كل زمان ومكان[1] .

يقول كانت « ان المعنى العام للخير والشر يجب ان لايجري تعيينه قبل القانون الاخلاقي (الذي يبدو كما لو انه يجب ان يكون اساسا لذلك المعنى العام) بل يجب ان يعين فقط بعد القانون الاخلاقي وبواسطته »[2] .

---

١ ـ الدكتور توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها ص٢٢٥ (القاهرة ١٩٦٧)

٢ ـ كانت ، عمانوئيل : نقد العقل العلمي ص١١٤ (ترجمة أحمد الشيباني . بيروت ١٩٦٦)

ترى لماذا اراد كانت للاخلاق صفـة الاطـلاق ، واعتبرها من قبيل الاشياء الباطنية الدائمة ، غير النسبية، معتبرا كل الرغبات والغايات والعواطف .. الخ مجـرد ظواهر لامسببات ؟ اي لماذا اراد كانت للاخلاق هـذا الضرب شبه الميتافيزيقي ؟

يجيبنا كانت نفسه على هـذا السؤال في مقدمـة كتابه « اسس ميتافيزيقا الاخـلاق » بقولـه « ان كل انسان لابد ان يسلم بأن قانونا يراد له ان يكون قانونا اخلاقيا ، اعني قاعدة التزام ، لابـد أن يحمـل طابـع الضرورة المطلقة ، وأن الوصية التي تقـول : عليك الا تكذب ، لايمكن ان يكون صلاحها مقصورا على بنـي الانسان وحدهم بحيث لايكون لغيرهم مـن الكائنات الحية بها الشأن ، وهكذا الامر مع كل القوانين الاخلاقية الاخرى . وفضلا عن هذا ، فأن قاعدة الالتـزام هنـا لاينبغي ان تلتمس في طبيعة الانسان ولا في ظروف العالم الذي وضع فيه ، بل لابد من البحث عنها بطريقة قبلية في تصورات العقل المجرد (من التجربة) وحدها . ان

كل التعاليم الاخلاقية الاخرى التي تقـوم على مبادىء التجربة البحتة وحتى تلك التي تعد بوجه من الوجوه تعاليم عامة ، حيثما ارتكزت على قاعدة تجريبية ، ولـو في اقل اجزائها ، الذي قد يكون احد الدوافع التي دفعت اليها ، نقول ان هذه التعاليم قـد نستطيع ان نسميهـا قاعدة للسلوك العملي ، ولكننا لن نستطيع بحال مـن الاحوال ان نطلق عليها اسم القانون الاخلاقي(*) .

وهكذا تمتاز القوانين الخلقية عن سواها ، ممـا يشتمل على اي عنصر تجريبي لا مـن حيث الجوهـر فحسب ، فكل فلسفة اخلاقية تستند استنادا تاما علـى الجزء الخالص (اي المجرد من أي تجربة) منها ، وعند تطبيقها على الانسان فأنها لا تستعير اقل نصيب مـن المعرفة به (اي من الانثروبولوجيا) بل تعطيه بوصفـه كائنا عاقلا قوانين قبلية، تتطلب بالطبع من خلال التجربة، ملكة حكم حادة ، لكي يمكن من ناحية تمييز الحالات

---

* كانت ، عمانوئيل : اسس ميتافيزيقا الاخلاق ص٩ (ترجمة محمد فتحي الشنيطي . القاهرة ١٩٦٥)

التي يستطاع تطبيقها عليها ،ولكي يتيسر من ناحية اخرى ان تجد سبيلها الـــى ارادة الانســـان ، وان تؤثر الاثر المؤدي الى ممارستها ذلك ان الانسان هو الكائن الذي ينفعل بالكثير من النزعات ، ويقوي حقا على ادارك فكر عملي مجرد (من التجارب والمعرفة البشرية) ولكنه لا يستطيـــع ان يجعلها تؤثر علـــى مجريات حياته تأثـــيرا فعـــالا[٣] ٠

وعلى هذا رفض كانت ان يبنـــي الاخلاق علـــى اساس احكام البشر النسبية المادية ، لان هذه الاحكام غير ثابتة ، ولا مطلقة (وهي تختلف بأختلاف الزمـــان والمكان) وانما تبني الاخلاق على اسس ثابتة مطلقـــة باطنية (ترى الاشياء في ذاتها ، اي علـــى حقيقتهـــا) ٠ ولهذا يذهب كانت الى ان مبدأ الشخص يكون اخلاقيا اذا تمشى مع القانون الاخلاقي ، والقانون الذي يستخلصه من تحليل الخبرة الاخلاقية صـــوري (مجرد عن التجربة) ، بحت[٤] فكأنه يريد ان يقـــول ،

---

٣ ــ كانت : اسس ميتافيزيقا الاخلاق ص٩
٤ ــ الموسوعة الفلسفية ص٢٥٣

ان القانون الخلقي موجود قبليا ، اي قبل اي فعالية يقوم بها الانسان ، وان مايراه الانسان خيرا او شرا مسببا لهذا القانون ، بل هما ظواهر له لاغير ، وعليه ناقش كانت « الخير » على انه ظاهرة للقانون المذكور لاسبب له ، فقال « ان القانون الاخلاقي هو المبدأ المعين الوحيد للارادة المجردة ، ولكن نظرا لان هذا القانون هو قانون (صوري) شكلي محض (واعني بشكلي ، انه يصف او يحدد فقط شكل السنة الادبية شكلا يعيا بصورة شاملة) ، لذلك فأنه بوصفه مبدأ معينا ، متجردا من كل مادة ، اي انه متجرد من كل موضوع للارادة ، ولذلك ، وبالرغم من ان الخير الاعلى قد يكون كامل موضوع العقل العلمي المجرد وهدفه ، اي الارادة ، غير انه مع ذلك يجب علينا ، لهذا السبب ان لا نعتبره مبدأ معينا له ، ويجب ان نعتبر القانون الاخلاقي وحده ، مبدأ يرتكز عليه تحقيق الخير الاعلى وترقيته وترويجه »[٥] .

٥ ــ كانت : نقد العقل العملي ص١٩١

ان الفعل ـ في رأي كانت ـ يكـون صالحـا، لا بسبب ان نتائجه تكون صالحـة او بسبب انه فعـل حكيم ، بل انما يكون كذلك لانه صادر عن اطاعة هـذا الحس الباطني بالواجب ، انه هذا القانون الاخلاقـي الذي يصدر عن خبرتنا الشخصية ولكنه يشـرع لنـا بصورة استبدادية كل سلوكنا من ماض وحاضر ومقبل، وان الشيء الوحيد الصالح بهـذا القانون العام هـو الارادة الصالحة ، ارادة اتباع القانون الاخلاقي بغض النظر عن المكاسب او الخسائر التي تنجم عنه ، بالنسبة لنا ، فعلا تهتم بسعادتك ، بل لتقم بواجبك .

لنطلب السعادة في الاخرين ، ولكن لنطلب لانفسنا الكمال ، وسيان عاد علينا هـذا بالسعـادة او الالم ، صحيح ان العالم غير كامل ، ولكن لنعش على مستوى كهذا ، علينا ان نطبق القانون الكامل في الدولة غـير الكاملة ، وصحيح ايضا انها لاخلاقية قاسية شاقة ، نعم انه لصعب عليك وضع الواجب فوق الجمال ، والاخلاقية فوق السعادة ، ولكن فقط تمشيا وهذه الاخلاقية يكون

بمقدرونا الا نبقى وحوشا، وان نبدأ بأن نكون كآلهة(*).

ويتوصل كانت ، بأستناده الى هذه الفكرة العميقة ، الى ان هذا الامر المطلق بالواجب يبرهن اخيرا على حرية ارادتنا ، وذلك لانه كيف كان بأمكاننا ابدا ان ندرك مفهوما كهذا بوصفه واجبا ، لو لم نشعر بأننا احرار ، وهكذا يقدم كانت لنا مفهوما جديدا للحرية ، تلك المشكلة العويصة التي حار الفلاسفة في بحثها ، فهو يقرر اولا انه لاسبيل الى البحث عن الحرية في نطاق الظواهر ، فهل يكون معنى هذا ان نتخلى عن بحثها بحثا ميتافيزيقيا؟ يحاول كانت ان يحل الموضوع بالرجوع الى تفرقته المشهورة بين الظواهر الخاضعة للزمان والمكان وبين الحقائق التي هي خارجة على الزمان والمكان . وعلى ذلك فأن افعالنا الخارجية ليست سوى رموز او مظاهر تعبر عن خلقنا الباطن ، اي عن « ذاتنا الحقيقية » ونحن اذن خاضعون لقوانين الضرورة في جانبنا الذي يخضع للزمان والمكان ويتحقق في عالم

---

* ديوارنت : قصة الفلسفة ص٤٧٢

التجربة ، ولذلك فأن افعالنا مرتبطة ارتباطا ضروريا بما تقدمها اي من البواعث والدوافع السابقة لها ، فهل يكون معنى هذا اننا لسنا احرارا على الاطلاق ؟ يجيب كانت: في وسعنا ان نقرر ، اننا احرار في طابعنا الخلقي ، حسنا كان ام رديئا ، ونحن الذين نخلق بأنفسنا هذا الطابع الخلقي بفعل حر يتجاوز الزمان ، مطلقا ، لا علاقة له بالظواهر الحسية النسبية ، بل انه يتعلل بذاتنا الحقيقية، تلك الذات المعقولة اللامرئية .

وعندما يصل التسلسل المنطقي الى حد التساؤل عن كيفية معرفة وجود تلك الحرية في ذاتنا المعقولة ،يهيب كانت بالاخلاق ، لان الاخلاق هي التي تستطيع ان تحل هذا الامر . والواقع ان لدينا جميعا شعورا بالواجب، والواجب هو القانون الذي يحدد ما ينبغي ان يكون .

وهكذا نرى كانت قد حول الانظار الى مجال جديد ، فلم نعد بصدد وجهة منطقية او تجريبية ، بل نحن هنا في مجال اخلاقي قوامه فكرة الواجب(*) .

---

* الدكتور زكريا ابراهيم : مشكلة الحرية ، ص٢٢ و٣٤ و٣٥

آراؤه في الطبيعة « الفيزياء »

على الرغم من اهتمام كانت البالغ في الامور الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) فأنه كان مهتما الى درجة كبيرة ايضا ، بأبحاثه الطبيعية (الفيزيائية) المسماة بفلسفة الطبيعة وقد اشتهر في اطار هذا الحقل بعدة تآليف مهمة .

ففي سنة ١٧٤٦م تقدم كانت ببحثه الجامعي الصغير « آراء حول التقدير الصحيح للقوى الحية » وهو بحث تأثر فيه بنظرية نيوتن في الجاذبية ، كما تتجلى فيه رغبته في التوفيق بين اتباع مذهب ديكارت ، واتباع مذهب لايبنتز ، وذلك حول مسألة قياس « القوة المحركة » .

واما رسالة كانت الموسومة « التاريخ الشامل للطبيعة ونظرية السماء » فقد اظهرت بداية استقلال صاحبها بآرائه عن آراء نيوتن ، اذ نقد فيه رأي نيوتن القائل : بأن تركيب النظام الحالي للمجموعة الشمسية لايمكن ان ينسر الا عن طريق القوانين الالية السائدة في الطبيعة ، وقد وضع كانت بدل هذا الرأي فرضية تقول بأن النظام الحالي للاجرام السماوية قد يكون في البدء بفعل دوران سديم اصلي . وهذه الفرضية تشبه الى حد كبير فرضية العالم الفرنسي لابلاس ، حتى لقد سميت النظرية السديمية في الاجرام السماوية بنظرية « كانت ـ لابلاس » في تفسير اصل الكون(*) .

ويرى البعض ان لابلاس قد تقدم بنظريته هذه بناء على اقتراح طرحه كانت سنة ١٧٥٥ يقول بأن النظام الشمسي وجد في الاصل كسديم كبير ذي نقطة مركزية شكلت بدورها قطعا سديمية جديدة نشأت عنها الكواكب ، ومع ان هذه النظرية عدلت كثيرا من حيث

---

* كانت : نقد العقل المجرد ص٢٠

تفاصيلها ، وبالرغم من انه قد اضيفت اليها « فرضية كوكبية » مقابلة تبدو في ظاهرها اقرب شبها لما نستطيع ملاحظته في مختلف القطع السديمية الحلزونية في السماء، فأن علماء الفلك قبلوها بصورة عامة[1] .

وفوق هذا ، فأن كانت حاول ان يضع تفسيرا ميكانيكيا لكل حركة وتطور كوكبين، فجميع الكواكب، كما اعتقد كانت ، كانت او ستكون آهلة بالسكان، كما ويقول بأنه ربما توجد في ابعد الكواكب عن الشمس أنظمة عضوية عاقلة أرقى من أي نظام عضوي أبدعه كوكبنا حتى الان ، وذلك لان مدة نمو تلك الكواكب اطول .

ولعل من اقوى ما ذهب اليه كانت من اراء طبيعية، نظريته في النشوء والارتقاء ، فقد اوحى في محاضراته التي نسقت عام ١٧٩٨م بأمكانية الاصل الحيواني

---

١ ـ راندال : تكوين العقل الحديث (ترجمة جورج طعمة . بيروت ١٩٥٥) ج٢ ص١٤٤ ـ ١٤٥

للانسان ، وبأن الانسان يتغير جثمانيا بحسب ظروفه الطبيعية المختلفة[2] .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد قام كانت بنشر عدة بحوث اخرى في شتى المواضيع الفيزيائية ، منها كتابه « في اسباب الزلازل او اهتزازات الارض » سنة ١٧٥٦م ، وبحثه « تاريخ ووصف لزلزال سنة ١٧٥٥ » الصادر سنة ١٧٥٦ ايضا ، وبحثه المعنون « ملاحظات جديدة حول تفسير نظرية الرياح » المنشور في نفس السنة المذكورة . كما انه نشر سنة ١٧٦٤م مقالة « في امراض الرأس » ، ونشر سنة ١٧٧٥م بحثه « في الفوارق بين السلالات البشرية » ، و « حول براكين القمر » سنة ١٧٨٥ وفي هذه السنة ذاتها نشر بحثه الموسوم « تعريف مفهوم السلالة البشرية » ، ثم نشر سنة ١٧٩٤ بحثا بعنوان « تأثير القمر على الجو » وفي سنة ١٨٠٢م نشر كتابه « الجغرافية الطبيعية »[3] .

---

٢ ــ ديورانت : قصة الفلسفة ص٤٤٦

٣ ــ قائمة مؤلفات كانت ومقالاته في كتاب « كانت أو الفلسفة النقدية » ص٣٤٣ ــ ٣٤٥

آراؤه السياسية

لم تمل طبيعة « كانت » النفسية والاجتماعية الى اثارة حفيظة الاوساط الحاكمة في بروسيا آنذاك ضده، ذلك انه اراد لنفسه حياة اعتيادية هادئة بعيـــدة عـــن المشاكل ، ولم يؤثر عنه انه اثار ضده السلطة الا حـــين نشر كتابا خارج بروسيا ، ولكن اعتذاره السريع سوى المسألـــة .

ومن الطبيعي ، ان يتجنب كانت كـــل مايتعلـــق بالدولة ، واجهزتها السياسية ، حتى اننا نكاد نجهـــل آراءه السياسية لولا انه نشر في اواخر ايامه ، واثنـــاء الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٥م كتابا مهما اسماه « مشروع للسلام الدائم » ، ولهذا الكتاب عدة جوانب ، فهو يمثل اولا امنية كانت في شكل الحكومة ، ويمثل ثانية رغبته

في تحديد شكل جديد للنظام السياسي العالمي ، هذا اضافة الى ما ضمنه من آراء مهمة في فلسفة التاريخ • وسنقتصر في هذا الفصل على تبيان آرائه السياسية • ترى أي نظام سياسي كان يتمناه كانت لوطنه بروسيا ؟

يقول كانت : « يجب ان يكون دستور المدينة في كل دولة دستورا جمهوريا ، ان الدستور الوحيد المستمد من فكرة العقد الاصلي التي يجب ان يقوم عليها كل تشريع قانوني لشعب من الشعوب هو الدستور الجمهوري ، وذلك لانه قائم على :

١ ــ مبدأ الحرية الذي يعتنقه اعضاء جماعة ما (من حيث هم افراد) •

٢ ــ مبادىء تبعية الجميع لتشريع واحد مشترك •

٣ ــ « المساواة » بين هؤلاء المخاطبين (باعتبارهم مواطنين) واذن فهذا الدستور في ذاته، هو الاصل الذي تبنى عليه جميع انواع الدساتير في المدينة •

واذا ما لاحظنا طبيعة النظام الاستبدادي البروسي الذين عاش في ظله كانت ، ادركنا مدى جرأة هـذه الآراء الجديدة ، فهو يرى في الملكية (وخاصة المستبدة) اساس كل الاخطاء ، وكل الجمود الذي يصيب الامم ، بل انه يعتبره من مسببات الحروب الرئيسة ، كما انه اظهر رغبته الصادقة في ان تتواجد دساتير لاتقيم لامتيازات الطبقات أدنى قيمة ، بل تعامل الجميع على اساس المساواة المطلقة •

ويعترف كانت في موضع آخر من « مشروعه » بصعوبة تحقيق مثل هذا الدستور الذي يتمناه ، فيقول « والدستور الجمهوري ، وهو وحده المطابق لحقوق الانسان ، اصعب الدساتير قياما ، وهو على الخصوص اقلها استتبابا ، ولذلك ذهب كثيرون الى ان قيام مثل هذا الدستور يقتضي شعبا من الملائكة ، وان الناس بما طبعوا عليه من ميول الاثرة والانانية عاجزون عن بلوغ مثل هذا النظام الرفيع » فما هي دعامة قيام مثل هذا النظام في رأيه ؟

هنا ينتقل كانت الى فكرة القومية ، الى الارادة العامة الكامنة في الشعب الواحد فيقول « ولكن الطبيعة تسخر هذه الميول (الاثرة والانانية) نفسها لتكون في عون الارادة العامة ـ التي تقوم على العقل ـ ولكنها على الرغم مما لها من احترام وتقدير تظل في قصور من حيث العمل والتطبيق ، ومن اجل ذلك يكفي لتنظيم الدولة تنظيما حسنا (وهو امر في مقدور الناس قطعا) ان تتآلف القوى البشرية تآلفا يجعل بعضها يحد من الاثار البغضية لبعضها الاخر ، او يقضي عليها قضاء مبرما »(١) .

كره كانت استبداد حكام الدولة البروسية العسكرية ، ورأى ان هذا الاستبداد سيقود الامة حتما الى الحرب ، وان الوسيلة الوحيدة لمنعها ، والقيام بدلها بأصلاحات متتابعة هي التشريعات والانظمة الديمقراطية « وتبلغ الجرأة بكانت (وهو الرجل الهادىء

---

١ ـ كانت : مشروع للسلام الدائم

النظامي) بأن يصرح بأستحالة تحقيق هـذه التشريعات والانظمة الا عن طـريق الثورة واذا تذكرنا بأن كانت اصدر كتابه « مشروع للسلام الدائم » سنة ١٧٩٥ اي بعد نشوب الثورة الفرنسية ، أدركنا مدى اهمية هـذه الثورة في نظره بأعتبار انها ستكـون البادرة الاولـى لتحـرير اوربا من انظمتهـا الاستبداديـة العتيقـة ، واستبدالها بأنظمة جمهورية وبقيام نظام دولي يرتكـز الـى الديموقراطيـة ، نظام لا مكـان فيه للعبوديـة والاستغلال ، ومكرس بكل طاقاته وجهوده للسلام[٢] .

يخلص كانت بعد عـدة تنبوءات الـى حتميـة الديمقراطية فيقول : « نستطيع اذن ان نقرر انه كلمـا قل عدد الاشخاص المتولين للسلطة السياسية (عـدد الحكام) ، وكلما عظم تمثيلهم اقترب النظام السياسي من النظام الجمهوري ، واصبح هناك امل في ان يسمو اليه اخيرا بأصلاحات متتابعة، فلهذا السبب كان الوصول

---

٢ ـ ديوارنت : قصة الفلسفة ص٤٨٧

الى ذلك النظام التشريعي وهو وحده التشريع الكامل (يعني الجمهوري) اصعب في الارستقراطيـة منـه في الملكية اما في الديموقراطية فلا سبيل الـى بلوغـه الا بثورة طاغية »(*) .

وهكذا نرى « كانت » وهـو في وسط الجهالـة والرجعية ، وعلى الرغم من اتحاد اغلب دول اوربا الملكية لسحق الثورة ، وبالرغم من سنيه الواحدة والسبعين ، يقف بجلاء ووضوح الى جانب النظام الجديد ، وينادي بأقامة الديموقراطية وتدعيم الحرية في كل مكان .

---

* كانت ، عمانوئيل : مشروع للسلام الدائم ص٤٨

آراؤه في القومية

لماذا اعتبر كانت النظام الديموقراطي التمثيلي امرا جوهريا في التوصل الى خير المجتمع والى منع الحروب واقرار السلم ؟ اي لماذا ربط كانت بين النظام السياسي للدولة وبين قضية السلام الدولي ؟

في الواقع ، انه لايمكننا الاجابة على ذلك الأ على اساس القومية ـ الارادة العامـة ـ التـي آمن بهـا فيلسوفنا واعتبرها الممثل الحقيقي عن ارادة الطبيعـة ذاتها ، وبأن كـل الخير يكمن في افساح المجال لهـذه الارادة بالظهور ، فيتحقق على يديها سـلام البشريـة جمعـاء .

ان القومية هي الارادة العامة التي تجمـع بـين الشعب ، وهي تكمن في ذوات افراد الشعب نفسه ،

فأن مثل جميع الشعب في هيئة ما ، تمثلت في تلك الهيئة روح القومية ، بشكل الارادة العامة ، واذا كان التشريع مستمدا من هذه الارادة كان ذلك ضمانا اكيدا على صحته « وهو وحده التشريع الكامل » واذا ما اجتمعت لدى كل امة قوانينها المستمدة من روحها (ارادتها العامة) عن طريق تمثيل الشعب كله ، توصلنا الى ايجاد قوانين صحيحة كاملة ، وما دامت الصحة هي القاسم الاعظم الذي يجمع بين تلك القوانين على اختلافها ، فان تلك القوانين (الارادات) ستلتقي التقاء طبيعيا يؤدي حتما الى اشاعة السلام ونبذ الحروب .

وهكذا ربط كانت بفلسفته بين النظام الجمهوري، والفكرة القومية ، والسلام العالمي برباط واحد وثيق ، **فالدستور الجمهوري « فضلا عن صفاء مصدره ، من حيث انه مستمد من المنبع الخاص الذي تنبع منه فكرة الحق ، يمتاز بأنه يرينا في الافق البعيد النتيجة التي ترنو اليها أبصارنا ، اعني السلام الدائم »**[*] .

---

* كانت ، عمانوئيل : مشروع للسلام الدائم ص ٤

ان الحق ـ في رأي كانت ـ لايمكن التوصل اليه عن طريق العقل التجريبي ، او العملي (اي عن طريق المعرفة المتأتية عن طريق التجربة المادية) بل عن طريق روح الجماعة اي الروح القومية ، ويوسع كانت هذا المفهوم بفضل عقده بأسم « مبدأ الجماعة » يقول فيه : « ان جميع الجواهر ، من حيث أنها موجودة ، تكون في جماعة كاملة ، اي في حال من معاوضة (وهي التبادلية في المنافع) الواحد منها للاخر »(*) .

لقد كان لآراء كانت هذه في القومية أثر كبير على الحركة القومية الالمانية في القرن التاسع عشر ، فلقد اعتنقها الكثير من فلاسفة المانيا ، وطوروها فيما بعد ، امثال هردر ، وهيكل ، ونيتشة .. وغيرهم . وما لبثت هذه الآراء ان صار لها دوي سياسي عظيم غير وجه المانيا ، بل التاريخ الاوربي بأسره . وكان ذلك البداية الايديولوجية لعهد القوميات في العالم .

* كانت ، عمانوئيل : نقد العقل المجرد ص٢٥٩

آراؤه في السلام العالمي

رأينا كيف جعل كانت النظام الديموقراطي التمثيلي اداة للتعبير عن روح القومية التي هي الحق بعينه ، ومن الطبيعي ان يحاول اقامة مشروع عالمي للسلام الدائم يقوم على اساس هذا الحق نفسه ، لذلك فقد جاء كتابه « مشروع للسلام الدائم (او الابدي) » نتيجة منطقية لهذه الفكرة .

على اننا اذا رجعنا الى اقوال كانت « قبل المشروع » وجدناه قد صرح مرارا عديدة عما للحرب من اثر حضاري في التاريخ ، من ذلك قوله في كتابه « نقد ملكة الحكم » (سنة ١٧٩٠م) «ان للحرب، باعتبارها قوة

---

* كانت ، عمانوئيل : مشروع للسلام الدائم ص٩ و١٠

هائلة من قوى الطبيعة جمالا وروعة ، في حين ان سلما طويلة الامد قد تولد، مع روح التكسب والتجارة نوعا من الانانية العامية الغليظة » .

ومع انه يعلن في كتابه « فروض عن بداءة تاريخ الانسانية » (سنة ١٧٨٦م) ان « اكبر شر يصيب الشعوب المتمدنة ناشىء عن الحرب ، لا بمعنى الحرب الحاضرة او الماضية ، بل بمعنى دوام الاستعداد للحرب القادمة » ، فقد سلم مع ذلك بأن الخوف من الحرب قد يكون في طور بسيط من اطوار المدنية ، من امتن الضمانات لصون الحرية ودفع الاستبداد ، لأن المستبدين انفسهم لايستطيعون ان يستغنوا عن الثروة القومية التي لاتنمو الا في ظل السلم والحرية[١] .

ويبدو للمرء من ملاحظة تواريخ اصدار مؤلفات كانت السياسية القليلة ، وعلى رأسها « مشروع للسلام الدائم » ان جميعها صدر بعد نجاح الثورة الفرنسية

---

١ ــ كانت ، عمانوئيل : مشروع للسلام الدائم ص٢٦

وانقضاء عهد السلطة الاستبدادية وزوال الحكم المطلق، مما يبعث على الاعتقاد بأن كانت رأى في نجاح تلك الثورة بادرة جيدة لتنظيم الشعوب تنظيما داخليا ، على اساس جمهوري ، تمهيدا ضروريا لانشاء جمهورية عالمية شاملة .

كتب كانت « مشروعه » لاحلال السلام الدائم على شكل مواد محددة ، بسط فيها الشروط الضرورية التي تجعل انتهاء الحروب أمرا ممكنا ، والواقع ان تلك المواد بالرغم من صيغتها القانونية المجردة ، فأنها تضمنت احيانا آراء بعيدة وعميقة الغور في تحليل التاريخ الانساني ، فكانت عندما يحاول انهاء الحروب في المستقبل يسعى جاهدا لمعرفة الاسباب الحقيقية الكامنة وراء تلك الحروب ، لأنه يعلم بأن لاسبيل الى انهاء مشكلة ما الا عن طريق معرفة مسبباتها . ان اهم ما تضمنته تلك الآراء تركيزها على الجانب الاقتصادي في اثارة الحرب ، معتبرة الاطماع الاقتصادية ونماء الثروات ، والقروض الوطنية المتضخمة ، وغيرها من

المشاكل المالية أسبابا رئيسية في تعبئة الرأي العام للحرب ، ومن ثم القيام بها رغبة في التخلص من المشاكل المالية التي تعاني منها الدولة . وهذا الرأي بعينه أساس المادة الرابعة من مشروعه ، والان لنلقي نظرة فاحصة على مواد هذا المشروع برمتها .

لقد نص المشروع على ست مواد اولية تبين « الشروط السلبية للسلم » وهي :

١ ـ « ان معاهدة من معاهدات السلام لاتعد معاهدة اذا انطوت نية عاقديها على أمر من شأنه اثارة حرب من جديد »(*) ان كانت هنا يحاول ابعاد احتمال نشوب الحروب بأستبعاد النية عليها ، اما هذه « النية » فسيوضحها في المواد التالية .

٢ ـ « ان أي دولة مستقلة ، صغيرة كانت أو كبيرة، لايجوز ان تملكها دولة اخرى بطريق الميراث ، او التبادل ، او الشراء ، او الهبة : فليست الدولة

---

* كانت ، عمانوئيل : مشروع للسلام الدائم ص٢٤

متاعا (كرقعة الارض التي اتخذتها وطنا) وانما هي جماعة انسانية لايحل لاحد سواها ان يفرض عليها سلطانه ، او يتصرف في شؤونها ، والدولة كجذع شجرة لها اصولها الخاصة ، لذا فان ادماجها في دولة اخرى ، كما لو كانت نباتا يطعم به نبات اخر ، معناه تجريدها من وجودها بأعتبارها شخصا معنويا ، وجعل ذلك الشخص شيئا من الاشياء ، ويعد كل هذا نقضا لفكرة التعاقد الاصلي التي لايمكن بدونها تصور اي حق على شعب ، ولا يجهل احد مقدار ما تعرضت له اوربا من اخطار ، حتى زماننا هذا ، بسبب وهم من هذا الضرب من الحيازة قد شاع عند اهلها .. فسول لهم ذلك الوهم ان الدول نفسها يباح لها ان تتزاوج فيما بينها : وانها لحيلة جديدة تصطنعها الدول لتصل ــ عن طريق المصاهرة بين العائلات ودون ان تكلف نفسها عناء ــ الى السيادة على غيرها وتوسيع رقعة ممتلكاتها »[1] .

ان كانت هنا يضرب مصالح الاسر الاقطاعية المالكة التي تحكم اوربا في عهده ، ضربة مسددة في الصميم ، فطالما ادعت تلك الاسر بحقها الموروث في حكم البلاد التي تريد غاضة النظر عن رغبة اهلها في ذلك . لقد جاء رأي كانت الصريح برهانا على بطلان الادعاءات الاقطاعية القديمة ، وتأييدا للروح الوطنية القومية ، التي تعتبر الاستقلال من أول شروطها الاساسية .

٣ ـ « يجب ان تلغى الجيوش الدائمة على مر الزمن »[٢] ويفسر كانت ذلك بأن وجود الجيوش الدائمة تهديد دائم للسلام العام ، فضلا عن ان منح الجندي اجرا لكي يقف حياته على قتل الغير مع استهدافه هو نفسه ان يقتل ، معناه معاملته على اساس انه « آلة » لا « انسان » .

٤ ـ ويلتفت كانت بعد ذلك الى أثر الناحية الاقتصادية

---

٢ ـ كانت : نفس المصدر ص٢٨

في توليد الاطماع الاستعمارية التـي هـي سبب رئيسي لاشعال نار الحرب فيقول : « يجب ان لا تعقد قروض (ديون) تتضخم تضخما لا يقف عند حد ، •• مثل هذا النظام الذي هو ابتكار عصري بارع لشعب مولع بالتجارة (الاشارة هنا للطبقة البرجوازية التجارية التي ظهرت في أوربا على نحو واسع له اهميته آنذاك) يعد ذريعة لتدخل بعض الدول في شؤون بعضها الاخر ، ويعد كذلك قوة مالية خطيرة وكنزا مدخرا لاشعال الحرب ، يربو على جملة ما تملكه الدول الاخرى مجتمعة ، ولا سبيـل الـى استنفـاذه الا بعجـز مـرتقب في الضرائب »[٣] •

٥ ــ « يحضر على كل دولة ان تتدخل بالقوة في نظام دولة اخرى او في حكومتها » ، وهذه المادة مشتقة

---

٣ ــ كانت ، عمانوئيل : مشروع للســلام الدائم ص٢٩ و٣٠

مباشرة من اعتبار الامم كالاشخاص لها حرمتها ولها وحدها حق التصرف في شؤونها »[٤] .

٦ ـ « لايسمح لاي دولة في حرب مع اخرى ان ترتكب اعمال عدائية ـ كالقتل والتسميم ونقض شروط التسليم والتحريض على الخيانة ـ قد يكون من شأنها عند عودة السلم ، امتناع الثقة المتبادلة بين الدولتين » هنا يريد كانت الحروب بين الدول ، حروبا شريفة ، لاخداع فيها ابدا . ومعلوم ان هذا منطق متناقض ، فأما ان تكون ثمة حرب ، تستخدم فيها الدولة كل ما يصل اليه يدها من الوسائل ، واما ان لاتكون حرب بالمرة ، وليس هناك حل وسط في هذا الشأن .

وبعد ان يستعرض كانت هذه الشروط الضرورية لاستتباب السلم في نظره ، يأتي الى ذكر الخطوات الايجابية لذلك ، معتبرا كيان الدولة الواحدة المفتاح

٤ ـ نفس المصدر ص١٤

الحقيقي والاساسي للسلم ، بأعتباره اللبنـة الاولى في بنيانه .

وهـذه الخطوات هي :

١ ــ « يجب ان يكون الدستور المدني لكـل دولـة دستورا جمهوريا » بمعنى ان السلطة التشريعية التي تقرر الحرب ، يجب ان تكون صادرة عـن ارادة الشعب ، وان تفصل عنها السلطة التنفيذية فصلا تاما ، وهذا النوع مـن الحكومـة انسب الانواع لمبدأ الحرية والمساواة ، وهـو ايضـا انسبها لاستتباب السـلام ، لان نظـام الدولـة الدستورية يجعل من يتعرضـون لمعاناة شـرور الحرب هم اولئك الذين يطلب اليهم تقريرهـا ، في حين ان حاكما مطلقا قد يرى في الحرب ملهـاة يتلهى بها ، ويترك مهمة الاهتداء الـى اسبـاب معقولة لتبريرها للهيئة الدبلوماسية « وهي دائما على استعداد لهذه المأمورية » .

٢ ــ « يجب إن يقوم قانون الشعوب على التحالف بين دول حرة » .

٣ ــ « حق النزيل الاجنبي ، من حيث التشريع العالمي ، مقصور على اكرام مثواه » اي دون ان يكون لدولة ان تتدخل في شؤون دولة اخرى[٥] .

يظهر للمتأمل في مواد هذا المشروع وثناياه، ان كانت استطاع ان يضع يديه لاكثر من مرة ، على مواطن الشر ، وان يحلل اسباب الحرب بقدر ما اوتي من معرفة تاريخية ، ولم يكن هو بمؤرخ كما اعلن هو عن نفسه ، ولهذا فأن لهذا المشروع اهمية خاصة ، واذا ما علمنا ان كانت هو واضع الاصطلاح الالماني الذي اطلق بعد وفاته بنحو قرن وربع قرن على « عصبة الامم » الحديثة ، ادركنا مدى تأثير هذا الفيلسوف الفذ على فكرة السلام العالمي . وقد اكد بعض الكتاب ان

٥ ــ كانت ، عمانوئيل : مشروع للسلام الدائم ص١٥

الرئيس ويلسن الداعي الى انشـــاء عصبـــة الامم كان يحتفظ لقراءاته اليوميـــة بكتاب « مشـــروع للســـلام الدائم » لكانت[٦] ، مما يدل علـــى ان لهـــذا الكتاب الفضل في تنبيه البشر الى مزايا انشاء مثل هذه السلطة العليا ، التي اريد لها ان تكون اساســـا لقيام الســـلام العالمـــي •

---

٦ ــ كانت : نفس المصدر ص٨ (المقدمة)

تفسير كانت لفلسفة التاريخ

على الرغم من توغل « كانت » في عدد كبير من علوم عصره ، اضافة الى الفلسفة ، فأنه لم يهتم بدراسة التاريخ دراسة خاصة ، كما يفهم من كلامه ، والظاهر ان دراسته المتصلة عن طبيعة الانسان ، وتعمقه في تحليل ملكاته العقلية ، علاوة على دراسته الشاملة للطبيعة ، جرته الى تأمل التاريخ الانساني من وجهة نظر فلسفية، وبالنظر الى اهتمامه الخاص بضروب معينة من التفكير شبه الميتافيزيقي (فيما يتعلق بالاخلاق) فقد كانت فلسفته التاريخية غير متكاملة ، وذات فجوات كبيرة ، بمعنى ان دراسته للتاريخ لم تهده الى فلسفته ، وانما جرته تأملاته الفلسفية الى محاولة تطبيقها على التاريخ ايضا . ولهذا فأن آثاره في هذا الضرب من التأليف لم تزد على بضعة مقالات متناثرة في المجلات ، اعترف فيها

بصعوبة عمله ، كما اعترف ضمنا بعدم حصوله على معرفة واسعة بالتاريخ تمكنه من تطبيق افكاره الفلسفية في تحليل سائر الوقائع والتطورات الاجتماعية التي مر بها الجنس البشري .

ولعل اهم ما نشر « كانت » في هذا الحقل ، مقالته « فكرة عن التاريخ الكلي (او العام) من وجهة نظر عالمية » المنشورة سنة ١٧٨٤ ، وبحثه « افتراضات ضنية حول بداية تاريخ الانسانية » الصادر سنة ١٧٨٦ وتنبؤ خاص عن « نهاية العالم » نشره سنة ١٧٩٤ ، ولاشك ان اهم هذه البحوث على الاطلاق ، مقالته الاولى عن التاريخ الكلي (او العام) ، بالرغم من انها لم تزد على ورقتين قصيرتين ، ومقال مطول(*) .

---

* اصل هذا المقال في المجلد الثامن من مجموع مؤلفات كانت الالمانية ، برلين وليبستك سنة ١٩٢٣ عند الناشر فلتردي جرويتر ، وقد قام بنقلها الى العربية الدكتور عبدالرحمن بدوي بأسم « نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي » والحقها بكتابه « النقد التاريخي » الصادر بالقاهرة سنة ١٩٦٣م ، الصفحات ٢٨١ ــ ٢٩٨، وهي ترجمة كاملة محققة.

ناقش « كانت » ضـرورة وجود قوانين للتاريخ الانساني ، ثم شرع في تلخيص هذه القوانين على شكل تسع نظريات عامة مهمة ، ويمكن ارجاع اهميتها هــذه الى انها تمكننا من فهـم واضح لما ينـوي الفلاسفـة التأمليون القيام به في التاريـخ • وتواضـع « كانت » الطبيعي وشعوره بحدوده ، يجعلانه ذا قيمـة كبرى في هذا الشأن ، فقد رأى أن أحد لايستطيع القيام بعمل فلسفي مفصل للتاريخ من النوع الذي بذهنـه ، بغـير معرفة واسعة بوقائع تاريخية معينة ، ولما كان لايستطيع الادعاء بحصوله على هذه المعرفة لنفسه ، فقد اقتصر على رسم الفكرة (او كما ذكر بنفسه انه اقتصر على الاهتداء الى مفتاح فلسفة التاريخ)[١] تاركاً لغيره القيام بتنفيذ هذه الفكرة • ولهذا فقد جاءت نظرية خالية من اي تطبيقات، او تجارب تستند اليهـا •

---

١ ـ وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ص١٦٥ (ترجمة احمد حمدي محمود ، القاهرة ١٩٦٢)

ومن ناحية اخرى فأن لعمل كانت قيمة توجيهية ، لانه يعبر بطريقة لاتخطىء عن الاسس الاخلاقية لهــذا النوع من التأمل ، ففلسفة التاريخ عنده عمل متصــل بالفلسفة الاخلاقية ، ففي الحق ، انه ليس ثمة مايوحي بأن « كانت » كان سيعالج التاريخ على الاطــلاق لولا الاسئلة الاخلاقية التي يبدو انها تثيرها ، اما ماهي هذه الاسئلة ، فقد اوضحت بقوة ووضوح ـ اكثر من مرة في المحاولــة[٢] .

لقد حاول كانت اولا ان ينفي ان هناك تناقضـــا بين « حرية الارادة » و« القوانين الطبيعيــة العامــة » مبينا ان الاتساق قائم بين الطرفين[٣] فالطبيعة في نظره كلمة تستعمل في سياق « نظرية المعرفة » ويقصد بهــا الاشياء التي تعرض لنا كمشهد من المشاهد ، لااكثر،

---

٢ ـ نفس المرجع والصفحة .

٣ ـ كانت ، عمانوئيل : نظرة في التاريخ العام بالمعنــى العالمي (ملحق النقد التاريخي لعبدالرحمن بدوي) ص٢٨١

وفي الواقع ، تابع كانت مصطلح عصره في اختزال التاريخ الى « طبيعة » ، معتبرا اياه كسائر القوانين الكونية ، كقوانين الجغرافية والمناخ اسوة بمونتسكيو ، وقوانين علم الحياة ، اسوة بهردر ، غير انه خطا مع ذلك خطوة هامة في سبيل التخلص من هـذا الخطأ ، فقـد بحث العقل « بوصفه جوهرا » ذا كيان مستقل عن الظواهر، لا على انه من ظواهر الكون المادي بأعتباره لونا مـن الوان « الطبيعة » فأستطاع بذلك ان يوفق بين مبدأي « الجهر » (القانون) والاختيار (الحرية) على اساس ان جوهر العقل هو الحرية بالمعنى الذي وضعه هـو نفسه للكلمة[٤] في مؤلفاته الفلسفية الاخرى .

ويجيب « كانت » عن مسألة اخرى تتعلق بواجب الفيلسوف وموقفه من الوقائع التاريخية ، في القسم الافتتاحي من مقاله المذكور فيقول : « ان المرء لايدري ، عند خاتمة المطاف ، ماذا عساه يكون مـن فكرة عـن

---

٤ ـ كولنجوود : فكرة التاريخ ص١٨٤

نوعنا هذا الذي طالما توهم فيه من مزايا ، وهنا ليس امام الفليسوف ـ مادام لا يستطيع ان يفترض مقدما ان هناك بوجه عام ، هدفا « عقليا خاصا » يستهدفه الناس في اعمالهم ـ الا ان يبحث ما اذا كان في وسعه ان يكتشف « هدفا للطبيعة » وغرضا في ذلك المسلك المنافي للعقل مما هو مشاهد في شؤون بني الانسان » ثم يحاول بعد ذلك ان يبين بأن قيام محاولة جدية لكشف مثل هذا الهدف هو امر ضروري ومحتمل ، فيقول « انا لنود ان نرى ما اذا كنا سنصل الى افتقاد دليل الى مثل هذا التاريخ (الهادف) ، ثم ندع للطبيعة ان توجد ذلك الرجل الذي يستطيع ان يصورها وفقا لهذا . انها اتت برجل مثل كبلر اخضع المسالك الشاذة للنجوم لسلطان قوانين ثابتة على نحو لم يكن في الحسبان ، كما جاءت بمثل نيوتن الذي فسر هذه القوانين وفقا لعلل في الطبيعة عامة »[٥] .

---

٥ ـ كانت ، عمانوئيل : نظرة في التاريخ العام بالمعنى العالمي ص٢٨٢

وهكذا يحاول « كانت » ان يبين لنا ان مايمكن ان نراه في التاريخ من فوضى ومن انحطاط احيانا ليس الا بمجموعه العام ، وعلى المدى الزمني الطويل ، سوى حلقات من سلسلة التطورات البشرية التاريخية التي تسير حتما نحو التقدم ، ان تاريخ البشر يتطور بالتأكيد نحو الاحسن ، وان لم نشعر نحن بذلك بسبب من وضعنا النسبي المحدود من حيث الزمان والمكان ، كما ان هذا التطور توجهه قوانين ثابتة ، كالتي كشف عنها كبلر في علم الطبيعة .

واذا ما تساءل المرء عن سبب حتمية وجود مثل هذه القوانين ، الساعية نحو التقدم في حين ان البراهين المعطاة غير كافية ، او غير واضحة في كثير من الاحيان، يجيب كانت على ذلك بأننا يجب ان نقبل هذه القوانين ما دمنا نسعى الى ايجاد مجتمع يسوده القانون الاخلاقي الكامن في عقلنا المجرد الخالص ، والا فأن أحدا لايستطيع تجنب شعور معين بالامتعاض ، عندما يلاحظ افعال الناس التي تعرض على المسرح الكبير للعالم ،

فالافـــراد يظهرون الحكمة هنـــا وهناك ، ولكن نسيج التاريخ الانساني ككل يبدو انه منسوج من الحماقـة والتفاهة ، وغالبا مـــن الاثام الطفيليـــة وحب الدمار ، ونتيجة ذلك اننا في النهاية حائرون في معرفة ماهي الفكرة التي نصوغها عن نوعنا ، الـــذي نشعر بفخـــر عظيـــم بمميزاته »[٦] .

وعلى هذا ، فأدلة كانت وبراهينه وبراهينه التـــي يقدمها كلها غائية[٧] تماما ، وذلك واضح في نظرياتـــه التسع التي يتشكل منها مقاله ، ففي النظرية الاولى يقرر ان « كل الاستعدادات الطبيعية لكائن ما قد هيئت على نحو من شأنه ان تتحقق كاملة ذات يوم وفقا للغـــرض المنشود » وبرهان هذا انه « اذا صرفنا النظر عن هـــذا المبدأ ، فلن نكون بعد بأزاء طبيعة تسير بنظام ، بل امام

---

٦ ــ وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ص١٦٦ وكانت : نظرة الى التاريخ العام ص٢٨٢

٧ ــ التقدير الغائي للكون المادي ، معناه ان الكون وخلقه يستهدفان غاية معينة

طبيعة عابثة ليس لها غاية ، وهنالك يخلي العقل الهادي مكانه للصدفة الداعية الى اليأس والقنوط »[8] .

وفي النظرية الثانية ، يؤكد كانت ان هذا التقدم لايمكن أن يظهر واضحا على الافراد ، وانما على النوع الانساني بأسره، وان الانسان بطبعه مزود بالاستعدادات الهادفة الى استخدام العقل » بيد انه لايسلك سبيل الغريزة ، يحتاج الى القيام بالمحاولات والممارسة والتهذيب كيما يتقدم تدريجيا من مرتبة في النظر الى اخرى تعلوها »[9] وهكذا يجعل للعقل الحر درجة اعلى من الغريزة مقررا ، كما في النظرية الثالثة ، ان الطبيعة (او العناية الالهية ـ فكلا اللفظين يدلان عنده على معنى واحد) لاتفعل شيئا عبثا وليست مبذرة في استخدام الوسائل المؤدية الى تحقيق غاياتها ، فأذا كانت قد اعطت الانسان العقل ، وما يقوم عليه من حرية

---

٨ ـ كانت : نظرة الى التاريخ العام بالمعنى العالمي ص٢٨٣

٩ ـ كانت : المقالة ذاتها ص٢٨٣

الارادة ، فذلك دليل واضح على غرضها من تدبيرها ، اعني انه يجب الا ينقاد بواسطة الغريزة او ان يهذب، وتهيأ اموره عن طريق المعرفة الفطرية ، بل عليه بالأحرى ان يصدر في كل شيء عن نفسه (اي عن ارادته العقلية الحرة)[١٠] .

ومع ان « كانت » يقر ، في النظرية الرابعة ، « وجود استعدادات اجتماعية لدى البشر ، فأنه يركز اهتمامه بتلك الاستعدادات غير الاجتماعية ، التي تجعل في الانسان رغبة في مقاومة الاخرين » لان هذه المقاومة هي التي توقظ كل قوى الانسان ، فتحمله على قهر ميله الى البطالة ، وعلى ان يحقق لنفسه ـ مدفوعا بالطموح والنزعة الى التملك والسلطان ـ مكانة بين اخوانه الذين لعله لايحتملهم ، ولكنه لايستطيع مع ذلك ان يفترق عنهم ، هنالك تبدأ الخطوات الاولى الحقيقية التي تنقل الانسانية من البداوة والسذاجة الى

١٠ـ كانت : نظرة الى التاريخ العام بالمعنى العالمي ص٢٨٤

الحضارة .. فالحمد للطبيعة اذا على الشقاق الاجتماعي، والعبث المتسابق المتحاسد والطمع النهم في التملك والسلطان ! فلولاها لبقيت كل الاستعدادات الطبيعية في الانسان راقدة لم تظفر بحظها من النماء »[11] .

وهكذا ، ففي الوقت الذي نسمع فيه آدم سمث ينادي بأن اعمال الافراد تؤدي في مجموعها وفي هدفها الاخير الى خدمة المصلحة العامة للجماعة ، يشرح كانت هذه الفكرة نفسها بطريقة ميتافيزيقية ، وينتهي بها الى النتائج نفسها التي انتهى اليها سمث[12] ويسفر « كانت » عن آرائه في ضرورة التنافس الدائم على التملك والسلطان » لخدمة المصلحة العامة » حينما يبين في النظرية الخامسة ان « المشكلة الكبرى للنوع الانساني ، والتي ارغمته الطبيعة على ان يجد لها حلا،

١١ـ كانت : نفس المقالة ص٢٨٥ ـ ٢٨٦

١٢ـ جاستون بوتول : تاريخ علم الاجتماع ص٤٠ ـ ٤١ (ترجمة محمد عاطف غيث وعباس الشربيني ـ القاهرة ١٩٦٤)

هي الوصول الى تكوين مجتمع مدني (برجوازي) يحكمه قانون عام » هذا المجتمع البورجوازي هو ما يراه كانت « اجمل نظام اجتماعي » . حيث انه يحوج نفسه بنفسه الى التهذيب « وبالتالي تنمو بذور الطبيعة عن طريق الصناعة المبدعة تنمية كاملة »[١٣] .

ويعترف « كانت » في النظريتين السادسة والسابعة بصعوبة ايجاد سلطة عليا توفق بين مبدأ التنافس و(اللااجتماعية) ، وبين ضرورة الخضوع للقوانين ، وتنفيذ العدالة اللازمة للميول (الاجتماعية) بل يكاد ان يعتبره مستحيلا ، ومع هذا فأنه يتفاءل كعادته بشأن امكان قيام سلام دائم بين الشعوب عن طريق انشاء هيئة عليا فوق الدول تساعد على « ان ترتفع من حالة الفوضى القانونية والوحشية الى اتحاد بين الشعوب ، حيث تستطيع كل منهما من اكبرها حتى اصغرها ان تؤمل في سلامتها ونيل حقوقها عن طريق هذا الاتحاد

١٣ـ كانت : نظرة للتاريخ العام بالمعنى العالمي ص٢٨٧

الكبير بينها - وعن طريق قوة متحدة وقرار يصدر وفقا لقوانين المشيئة المتحدة لكل الشعوب »[14] ويبلغ التفاؤل بكانت الى حد اعتبار الحروب الطاحنة التي كانت تخوضها الدول الاوربية ، محاولات للوصول الى مثل هذا النظام المثالي فيقول « ما الحروب الا محاولات متعددة (ولو لم يكن هذا في قصد الانسان انما في قصد الطبيعة) من اجل ايجاد احوال للدول جديدة ، وتكوين هيئات جديرة بالقضاء ، او على الاقل بتمزيق اوصال القديمة ، وهذه الجديدة اما انها لاتستطيع ان تحتفظ بنفسها في داخل ذاتها ، او بعضها الى جوار بعض مما يؤدي الى مرورها بمحنة ثورات مشابهة جديدة ، وتستمر الحال على هذا الى ان نصل - عن طريق خير تنظيم للدستور المدني من الناحية الداخلية ثم عن طريق الاتفاق العام والتقيد من الناحية الخارجية - الى حال تشبه حال الكائن المدني العام ، حال يمكن ان تحافظ على نفسها كأنها كائن يتحرك بنفسه »[15] .

١٤- كانت : نفس المقالة ص٢٩٠

١٥- كانت : نظرة الى التاريخ العام بالمعنى الكلي ص٢٩٠

وعلى هذا ، فأن تنبؤ كانت حول ضرورة وحتمية المجتمع البورجوازي ، والظروف المؤدية اليه ، تشبه الى حد كبير تنبؤات الفلاسفة الاشتراكيين حول ضرورة وحتمية المجتمع الاشتراكي ، وحول الظروف التي ستقود اليه نتيجة الحروب والمنازعات المتصلة التي سيقود اليها استغلال الدول الرأسمالية السائدة لبعضها . وكما اعتبر « كانت » ان النظام الاقطاعي الذي كان لايزال قائما في دول عصره سيمزق نفسه نتيجة لطبيعته القديمة ، اعتبر هؤلاء الفلاسفة ان طبيعة المجتمع البرجوازي ستعمل على تمزيق هذا المجتمع بنفسها . يؤكد صحة هذه النظرة ان « كانت » وضع ـ كأسلوب للتبدل الاجتماعي المنشود ـ تأكيدا قويا على « نوع من التظافر الابيقوري للعلل الفاعلية » ، وهو ماعرف فيما بعد بأسم « الديالكتيك »[16] حيث يذكر ان من شأن هذا القانون ان يجعل الدول تحاول « مثلها

١٦ـ الديالكتيك : اصطلاح استعمله هيغل ، وهو مشتق من الكلمة اليونانية « دياليكو »

مثل ذرات المادة في اصطدامها حسبما اتفق ، ان تكون كل انواع المؤسسات التي تحطمها مصادمات جديدة حتى تصل الى تكوين مؤسسة يمكن ان تبقى بصورتها »[17] وليس هذا الصدام المتسلسل الا « الدايلكتيك » بشكله المادي ، عينه .

وفي النظرية الثامنة يعيد « كانت » تأكيده على ان تاريخ النوع الانساني في مجموعه هو « تحقيق مستور للطبيعة من اجل ايجاد دستور للدولة كامل داخليا ، ولاجل هذا الغرض خارجيا ايضا ، بوصفه الوضع الوحيد الذي تستطيع الطبيعة فيه ان تنمي كل استعداداتها في الانسانية تمام التنمية »[18] ولا حاجة للقول بأن في هذا ، اشارة للنظام البورجوازي نفسه .

اما النظرية التاسعة والاخيرة ، فيبين فيها « ضرورة قيام » محاولة فلسفية لتصوير التاريخ العام على اساس تصميم للطبيعة يهدف الى الاتحاد المدني الكامل في

١٧ــ كانت : نظرة الى التاريخ ص٢٩١
١٨ــ كانت : نفس المقالة ص٢٩٣

النوع الانساني ـ نقول انه يجب ان نعد هذه المحاولة ممكنة ، بل ومفيدة بالنسبة الى غرض الطبيعة هذا »[19] .

وخوفا من ان يعتقد احد بأن كانت يحاول بهذه الافكار ان يوجد له دليلا قبليا من شأنه ان يحرف النظر « عن ايجاد التاريخ بالمعنى المحدود ، وهو القائم على اساس تجريبي » يعترف « كانت » في الفقرة الاخيرة من مقاله ، بكل تواضع ، بأن ليست محاولته هذه الا « فكرة عما عسى ان يحاوله عقل فلسفي (يجب ايضا ان يكون موفور العلم بالتاريخ جدا) من وجهة نظر اخرى »[20] .

انه لاينكر ان اغلب براهينه قبلية ، اي غير مستمدة من التجارب المادية وعذره في ذلك ان العصر الذي لدينا سجلات تاريخية عنه قصير جدا ، لايكفي لاكتشاف اي

١٩ـ كانت : نظرة الى التاريخ العام بالمعنى العالمي ص٢٩٥

٢٠ـ كانت : نفس المقالة ص٢٩٧

شيء عام ، فالمشروع الذي قدمه ليس طريقا مختصرا لاكتشاف الوقائع التاريخية بل هو وسيلة للنظر الى الحقائق بعد اكتشافها[21] .

واخيرا ، يمكن تلخيص « فكرة كانت » في النقاط الاربع التالية :

١ ـ فكرة تاريخ للعالم ، مثل اعلى عملي ، ولكنه يتطلب الجمع بين التفكيرين التاريخي والفلسفي : يجب ان تفهم الحقائق ثم تروى . ويجب ان تدرس الحقائق كحقائق موضوعية بحيث يتمثلها التفكير لا من وجهة النظر « الذاتية » او الخارجية فقط .

٢ ـ ويفترض هذا التاريخ وجود خطة سابقة للحوادث ، ومعنى ذلك ان ثمة « تقدما » ملحوظا او شيئا يتبلور حثيثا وتباعاً ، يريد ان يخرج الى حيز الوجود .

٢١ـ وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ص١٦٧

٣ ـ وهذا الذي يريد ان يخرج الى حيز الوجود المادي ، هو نضوج العقلية الانسانية ، اي العقل والحرية الاخلاقية .

٤ ـ والوسيلة التي تنتهي الى تحقيق سيطرة العقل على هذه الصورة ، هي الطيش الانساني ، والمنافسة على السلطان والتملك بأعتبار ذلك من الاستعدادات غير الاجتماعية التي تبعث على تطوير المؤسسات الاجتماعية وتقاوم الكسل والجمود[٢٢] .

ولايخفى ، ان وراء هذه النتائج التي توصل اليها شيئاً من التناقض ، وخاصة فيما يتعلق بالنتيجة الاخيرة ، لان التأكيد على المنافسة ، والطيش اللااجتماعي يتعارض ـ فيما اعلم ـ مع المبدأ الاساسي الذي بنى عليه كانت فلسفته الاخلاقية حيث رأى بأن على الانسان ان يطبق الواجب الخلقي حتى ولو اضر بمصالحه

٢٢ـ كولنجوود : فكرة التاريخ ص١٩٣

الخاصة ، لان الواجب شيء اعظم واسمى مـــن القيـــم الخيرية والشرية التي يتعارف عليها البشر في حياتهـــم الاجتماعيـــة ٠

اما سائر النقاط الاخرى ، فقد تولى نقدها عـــدة مفكريـــن ، منهـــم ر٠ج٠كولنجـــوود[٢٣] ، وو٠هـ وولش[٢٤] ، نقدا وافيا شاملا ٠

٢٣ـ فكرة التاريخ ص١٩٣ ـ ١٩٥
٢٤ـ مدخل لفلسفة التاريخ ص١٧١ ـ ١٧٦

فلسفة هردر وعلاقتها بآراء كانت

لايمكن للمرء ، وهو يبحث في الفكـر الكانتـي المتشعب ، وخاصة فيما يتعلق بآرائه في التفسير الفلسفي للتاريخ ، الا ان يأتي الى تناول العلاقة الفكرية بينـه وبين مفكر الماني آخر عاصره ، ونقده ، كما اخذ عنه ، هو الناقد ، والفيلسوف ، والواعظ هـردر (١٧٤٤ — ١٨٠٣م) . وفي الواقع ان هذه العلاقة الفلسفية في غاية العمق والتشابك ، حتى لقد اختلف عدة باحثين في تعيين من تتلمذ منهما على الاخر ، وانتمى اليه بفكره .

ولد هيردر في مورونكن من بروسيـا الشرقيـة لابوين فقيرين ، بعد عشرين سنـة مـن ميلاد كانت ، ودرس اللاهوت والفلسفة في كينسبرك من ١٧٦٢ الـى ١٧٦٤م ، متكسبا خلال هذه الفترة مـن التدريس في

كلية فردريك بهذه المدينة ، وقد استمع في الجامعة الى محاضرات عمانوئيل كانت ، فأخذ عنه شغفه بالجغرافية والعلوم الانسانية[1] .

وفي عام ١٧٦٤ انتقل الى « ريجا » حيث عمل هناك مساعدا لاستاذ في مدرسة الكاتدرائية وظل في المدينة الى عام ١٧٦٩ ، وكان اول اعماله الكبيرة هو « في الادب الالماني الجديد » الذي نشر سنة ١٧٦٧ ووضعه في مركز رفيع بين كبار نقاد الادب .

وبعد ان اشتد الجدل بين هردر وكاتب اسمه كلوتس ، قرر الاول ترك ريجا ، وفعلا قام بعدة سياحات مهمة في حياته وافكاره ، فزار نانت ، وباريس ، وهامبرك ، حيث تعرف بالعديد من رجال الفكر ، وعمل مرافقا ومعلما لاحد النبلاء ، ثم تزوج بعد حب عنيف[2] .

---

١ ـ بوتول : جاستون : تاريخ علم الاجتماع ص٥٢ ـ ٥٤

٢ ـ د. مصطفى ماهر : الاغاني الشعبية ليوهان جوتفريد هردر (تراث الانسانية ٣ : ٣٠٧)

وفي عام ١٧٧٦ وصل هيردر الى فايمار حيث استقبله جوته ، ونشر عدة مؤلفات مهمة على رأسها كتابه « فلسفة تاريخ الانسانية » الذي جمع فيه آراءه السياسية والاجتماعية كما انه نشر عدة مجاميع لاهوتية اثارت جدلا طويلا ، باعتبارها مفاجئة وفكرة غير متوقعة من رجل في عصر الاستنارة[٣] .

واخيرا ، توفي هردر في فايمار سنة ١٨٠٣ ، اي قبل سنة واحدة من وفاة كانت . والان ، وبعد ان إستعرضت بأيجاز بالغ سيرة هذا الرجل ، الفذة الثرة ، لابد لي من استعراض آخر لاهم آرائه في الفلسفة والاجتماع ، وخاصة ما يتعلق منها بفلسفة التاريخ ، كيما نستطيع ، فيما بعد ، من ملاحظة مدى التأثير المتبادل بينه وبين استاذه كانت .

يرى هردر ، في مؤلفه التاريخي الفلسفي آنف الذكر والبالغ اربعة مجلدات ، ان الانسانية مرتبطة

---

٣ — Coprleston, A. History of Philosophy Vol VIp144

ارتباطا شديدا بمكانتها التي احتلتها من الكون المادي ، والطابع العام الذي تميز به هذا الكون هو طابع الكائن الحي الذي وضع تصميمه بصورة تمكنه من خلق كائنات عليا ، تنمو وتتطور في داخله ، وبهذا ينطلق هردر ليبين لنا علاقة الطبيعة البشرية بالنظام الكوني[٤] ، على أعتبار انه اذا اردنا ان نفهم التاريخ الانساني فيجب ان نفهم اولا مكان الانسان في الكون ، وان ننظر للموضوع نظرة جدية .

اعتبر هردر ان للبشر خصائص انسانية معينة ، متأثرا بالحقيقة القاضية بأن هناك سلاسل مستمرة من التدرج من ابسط الصور الخاصة بالمادة غير العضوية الى اعلى صورها وهو الانسان باعتباره اكثر صور الحياة الحيوانية تركيبا ، وفسر هذا الفرض بأن هناك قوة واحدة منظمة ، او مجموعة موحدة من القوى المنظمة تحل في هذا العالم ، وتعمل على الانبعاث الحر للروح .

---

٤ ــ كولنجوود ر.ج : فكرة التاريخ ص١٧٠

والانسان هو اعلى انتاج لهذه القوى الخاصة بالحياة على الارض ، وكل شيء غير ذلك موجود لخدمة تقدمه ، ولكن من الخطأ الظن انه هو المخلوق الروحي في العالم ، وانما كل شيء يقف في منتصف الطريق بين عالمين ، عالم الكائنات الحيوانية التي هو اعلاها شأنا ، وعالم الكائنات الروحية التي هو ادنى عضو فيها[٥]
ويرى هردر ، ان الانسان بوصفه كائنا طبيعيا ينقسم الى الاجناس البشرية المختلفة ، وكل جنس منها مرتبط ارتباطا وثيقا ببيئته الجغرافية ، وله رصيده الاعلى من الخصائص المادية والعقلية التي تشكلها البيئة ، ولكن كل جنس بشري متى تبلور في صورة محدودة ، اصبح يمثل نوعا معينا من انواع الانسان ، توفرت له الخصائص الدائمة التي لاتعتمد على علاقته المباشرة بالبيئة ، ولكن على الخصائص المتوارثة في تكوينه، من اجل ذلك نجد ان قوى الاحساس والتخيل عند الاجناس البشرية المختلفة ، تختلف عن بعضها البعض اختلافا

---

٥ ــ وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ص١٧٨ ــ ١٧٩

جوهريا ، لكل جنس فكرته الخاصة به في السعادة، ومثله الاعلى في الحياة ، ولكن هذه البشرية التي اختلفت من حيث الجنس ، تصبح مرة اخرى مهدا ، أو تربة لنشأة كائن انساني حي من النوع السامي ، ونقصد به الكائن الحي في مراحل تطوره التاريخية ، وبتعبير آخر جنس بشري لن تكون حياته وضعا ثابتا لايتغير ، وانما تكون مراحل تطورية ، كل مرحلة منها تدنيه الى الكمال[٦] •

وعلى هذا الاساس ، ايد هردر فكرة ان لكل شعب نوعا من الروح تفرض على افراده طريقة في التفكير وفي الشعور غير قابلة للمشاركة مع اي شعب آخر ، وهي الفكرة التي عززها كانت ببراهينه الخلقية، وعبر عنها هيكل بأسم الروح الشعبية • ولمعرفة الروح الالمانية ، انغمس هردر في دراسة الثقافة القومية الالمانية من بداياتها البربرية • ودرس اصل لغتها وحضارتها القديمة الى تاريخها ونظمها في العصور الوسطى ، كما

---

٦ ــ كولنجوود : فكرة التاريخ ص١٧١ ــ ١٧٢

درس فنونها الشعبية التقليدية وآثارها ، وكان هدفه خلق صورة جديدة للمجتمع الالماني تكون مسؤولة عن وحدة نموها القومي الخاص بها[٧] .

يقول « اليس الخير موزعا على العالم بأسره ؟ وذلك حتى لايستأثر عنصر انساني او بقعة واحدة من الارض بكل شيء ، لقد قسم الخير ، وتحول الى الوف الاشكال وتوزع في جميع بقاع العالم ، وفي كل عصر من عصور الزمان ، ومع هذا فما زالت تلوح في الافق خطط جديدة للتقدم ـ هذه هي رسالتي الفكرية العظمى ! »[٨] .

وفي الواقع ، كان تأثير هردر على المدرسة الروماتتيكية بكاملها في المانيا ـ وخاصة على شلنغ

---

٧ ـ بوتول ، جاستون : تاريخ علم الاجتماع ص٥٥ والاغاني الشعبية لهردر (تراث الانسانية ج٣ ص٣١٩

٨ ـ ارنست كاسيرر : في المعرفة التاريخية ص١٠ ـ ١١ (ترجمة احمد حمدي محمود . القاهرة)

وهيغل ، كبيرا جدا . فقد جعلوا من الفكرة القائلة بأن الحضارة كانت تطورا بطيئا من بداية صغيرة ، مبدأ يعتنقه جميع المثقفين من الناس . ونشأ تحت تأثير كوندورسيه الثائر في فرنسا والهيكليين المحافظين في المانيا ، سلسلة طويلة من المؤرخين همهم تقصي قوانين التقدم والتطور الاجتماعيين ومراحله[٩] .

كان هردر يمثل بحق عصرا معينا ، يختلف عن عصر كانت بعدة امور ، كما كان الاختلاف بين الرجلين يمتد الى طباعهما ايضا ، فقد كان نصيب هردر من الحساسية اكثر من نصيبه في المقدرة الذهنية الجافة ، وقد جرى في دمائه حب التأثير العاطفي والتأمل ، بينما كان كانت هادئا ، انتقادي الطبع ، حذرا في تأملاته ، ويشك في كل صور الغيبية ، لم يتأثر بالرومانتيكية الا قليلا جدا[١٠] .

---

٩ ــ راندال ، جون هرمان : تكوين العقل الحديث ج٢ ص١١٧ ــ ١١٨

١٠ــ كولنجوود : فكرة التاريخ ص١٧٦

لهذا فقد كان الاختلاف الفكري بين الرجلين امرا متوقعا ، بالرغم من ان كانت كان استاذا لهردر فترة من الزمن . وفي الحقيقة ، كان لهردر اثر كبير على فلسفة كانت ، اذ لما نشر هردر المجلد الاول من كتابه سنة ١٧٨٤ ، سارع كانت الى قراءته ، ومع انه انتقده نقدا لاذعا في السنة التالية ، الا ان الكتاب حفزه الى التفكير في المشكلات التي اثارها ، مما دفعه الى كتابة بحثه الاول عن فلسفة التاريخ مسميا اياه « فكرة عن تاريخ العالم من وجهة النظر الكلية (أو الشاملة او العالمية) »[١١] .

ومن هنا تشابهت الفلسفتان في الجوهر ، واختلفتا في معظم الفروع ، ففي الوقت الذي مال فيه كانت الى القوانين الاخلاقية ، وقيمها القبلية شبه الميتافيزيقا ، ذهب هردر الى العناية بالقيم الشعبية ، واستجلاء ملامح الشخصية الالمانية . وعلى اية حال يمكن القول ، ان كلا الفيلسوفين قد توصلا ـ بالرغم

١١ـ وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ص١٧٧

من اختلاف مسلكيهما ـ الى نتيجة واحدة ، كان لها ابلغ الاثر في تكوين الايدلوجية الالمانية القومية ، الا وهي ضرورة الاهتمام بالواجبات الخلقية ، وتقوية روح وارادة الفرد الالماني وتهيئته لخدمة الامة الالمانية .

وفي الواقع ، كان النقاش المثير الذي دار بين الرجلين ، مصدرا ثرا لآراء كثيرين من المثقفين الالمان ، وغيرهم من الاوربيين . فقد ازدرى هردر التعارض بين ما هو قبلي وبين ما هو تجريبي ، او بين الصورة والمضمون مع جميع النتائج التي استخلصها كانت ومنها قدرة العقل الانساني على تحصيل المعرفة . وشعر بحكم الفطرة بالميل الى الحدس ، الذي وضع ثقته فيه ، ولم يشعر بميل نحو التعقل البرهاني ، مما اظهر آراءه لا تتفق احيانا مع المناهج العلمية ، وان بدت في احيان اخرى ذكية موحية(١٢) .

١٢ـ وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ص١٧٧ والاغاني الشعبية لهردر ، للدكتور مصطفى ماهر في (تراث الانسانية ج٣ ص٣١٩) وفيه قائمة بمؤلفات هردر كافة .

انتقد هردر تآليف استاذه « نقد العقل المجـرد » سنة ١٧٩٩م نقدا لاذعا ووصفـه فيـه بأنه نوع مـن الشعوذة ، وان كان قد ضمن نقده اختبارات مدركـة للنظريات التي جاء بها كانت[١٣] وخاصة فيمـا يتعلـق بالرياضيات ، اما ما يخص « الفراغ » و« الزمن » فقد نبذه هردر تماما .

وفي عام ١٨٠٠ عاود هردر هجومه على استاذه ، فنقد عليه مؤلفه « نقد ملكة الحكم » زاعـا ان كانت لم يفهم بعد علم الجمال[١٤] .

ولم ينته هذا النزاع الفلسفي الا بوفاة صاحبيه ، فقد توفى هردر في فايمار بعد اصدار نقده الاخير بثلاث سنوات فقط ، اي في سنة ١٨٠٣م ، وقبل سنة واحـدة من وفاة كانت .

١٣- Copleston, A. History of Philosophy Vol VI p145

١٤- Copleston Vol VI p145-146

تأثير كانت على الفلسفة الاوربية

من الطبيعي ان فلسفة معقدة عميقة الاسس كفلسفة كانت ، لايمكن تمضي في ركب تاريخ الفكر الانساني دون ان تترك أثارا واضحة ، وبصمات بينة ، على رجال الفكر ، من فلاسفة وادباء وعلماء طبيعيين، ورجال رياضة ، ومربين وغيرهم ، سواء الذين عاصروا كانت نفسه ، ام الذين تدارسوا آثاره من بعده .

والواقع إن معظم هذا الصرح الفكري العظيم الذي اقامه كانت لم يزال قائما ، وان الفلسفة النقدية تمثل حدثا ذا اهمية دائمة ، حتى وان اهتزت تفاصيل هذا البناء واستحكاماته الخارجية[1] .

---

١ ـ ديورانت : قصة الفلسفة من سقراط الى جون ديوي ص٤٨٩

ففيما يتعلق بالرياضيات ، اعتنق هلبرت والمدرسة الصورية من ناحية ، وبرونر والحدسيون من ناحية اخرى ، رأى كانت القائل بأن الرياضة تتألف من قضايا تركيبية قبلية تصف المكان والزمان والبناءات التي تقوم فيها ، وان هلبرت ـ اضافة الى ذلك ـ ليعد اللامتناهي الفعلي فكرة كانتية[٢] .

وقد ارتكزت مناهج الفكر التي وضعها فيخته ، وشللغ وهيغل وشوبنهور على مثالية كانت بشكل رئيس ، حيث مهد نقد كانت للعقل ، وتمجيده للشعور ، الطريق امام مذهب الارادة لشوبنهور ونيتشه ، والمذهب الذوقي لبرغسون ، والمذهب الذرائعي لوليم جيمس[٣] ، كما ارتضى كثير من فلاسفة الاخلاق في المدارس المختلفة تفرقته المشهورة بين العقل المجرد ، والعقل العلمي[٤] .

---

٢ ـ الموسوعة الفلسفية ص٢٥٥
٣ ـ قصة الفلسفة ص٤٩٧
٤ ـ الموسوعة الفلسفية ص٢٥٥

ويمكن القول بأن براهين كانت عن النقائض التي تنشأ حيث تؤخذ « الصور » على انها مميزة للواقع الموضوعي ، مصدر من مصادر نظرية هيغل القائلة بأن الواقع مناقض لذاته ، وان المناقضات ترتفع بأعادة « الصورة » تركيبا ديالكتيكيا (جدليا)[٥] .

اما فيما يختص بفلسفة كانت عن « المعرفة » ، وهي الفلسفة القائلة بأن هناك عالما من الحقائق النسبية التي تتغير بفعل تغير الزمان والمكان ، فقد حافظ عليها انصار المذهب المضاد للظاهرية ، واعتنقها الفيلسوف الرياضي « آينشتاين » بصورة جوهرية[٦] حيث استمد منها نظريته المشهورة المعروفة بـ« النسبية »واصبحت فيما بعد مصدرا متجددا لفلسفات متطورة اخرى .

اضافة الى ما تقدم ، فقد كان للفلسفة الكانتية وخاصة نقد الحكم ـ تأثير ملحوظ على ظهور الفلسفة

---

٥ ـ الموسوعة الفلسفية ص٢٥٥
٦ ـ الموسوعة الفلسفية ص٢٥٥ وقصة الفلسفة ص٢٦٧

المثالية الالمانية ، وخاصة عند نيتشــه واتباعــه الذيــن اختلفوا عن كانت في انهم كانوا ينظرون الــى الذات لا على انها تدرك العالم فحسب ، بل علــى انهــا تخلقــه بصورة ما[٧] .

اما في صدد فلسفة التاريخ لدى كانت ، فقد اثرت طريقته في الفلسفة على عدة مفكرين ممن عاصروه ، او جاءوا بعده ، فظهر صداها لدى هيغل ، على وجه خاص، وكان لها اثر هام في آراء الفلسفة الالمانية التي حمــل رايتها « هيردر » على ما تطرقنا اليه من قبل .

---

٧ ــ الموسوعة الفلسفية ص٢٥٥

فهرست

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(٣٣٧) لسنة ١٩٨٦

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م





سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والاداب
تصدرها دائرة الشؤون الثقافية والنشر
بغداد / شارع الخلفاء

رئيس التحرير : موسى كريدي
سكرتير التحرير : ماجد أسد

الكتاب القادم : **تغذية الاطفال**

تأليف

د. لؤي النوري

السعر : ٢٥٠ فلس

دار الحرية للطباعة ـ بغداد